

المأمون

الجنيلة العالم

بقلم

الدكتور محمد مصطفى هداره

الصادر
المصرية
للتأليف
والترجمة

أعلام العَرَب

٥٩

المأمُون

الْخَلِيفَةُ الْعَالِمُ

يقام

الدكتور محمد مصطفى هداره

الدار المصرية للنأليف والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يعتبر المأمون من أعظم الشخصيات الحاكمة التى نعتز بها فى تاريخنا العربى ، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى كانت بداية لتفتح ينابيع الثقافة العربية التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قرونا طويلة . وظهر فى فترة حرجة كانت تهتز فيها الخلافة العربية امام أطماع الشعوبيين وأصحاب النحل والعقائد الشاذة الذين لا يريدون الخير للعرب ولا للإسلام .

وكان المأمون بطلا فى مواجهة مشكلات عصره من الناحيتين السياسية والحربية ، ولكن جهده الأكبر الذى ظل باقيا يشهد بفضلہ دفعه للحركة العلمية بما وهبه الله من حرية الفكر واتساع الأفق والمحبة والتقدير للعلم والعلماء .

ثم كان المأمون بعد ذلك كله قوة صامدة امام مغريات عصره لا يجرفه تيارها ولا تهتز عواطفه أمام سلطان عقله ، فاذا انضافت الى ذلك صفات نادرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، أدركنا أن المأمون جدير بالكتابة عنه لا كشخص فرضه علينا التاريخ ، ولكن كإنسان فرض نفسه على التاريخ واستحق أن يوضع فى أكرم مكان من صفحاته .

وقد كتب كثيرون عن المأمون ، ولكننى لم أجد فيما كتبوا صورة كاملة للإنسان نفسه ، وكان السرد غالبا على كتاباتهم والاغراق

فى تناول عصر المأمون ومشكلاته دون جلاء صورته ذاتها ، ولهذا
اهتممت بهذه الناحية ، وصرفت إليها عنايتى ، واستطعت – بقدر
ما أسعفتنى المصادر التاريخية – أن ألام جزئيات صغيرة فتصير
صورة واضحة المعالم لشخصية المأمون أولا ولعصره والتطور
الأدبى والعلمى فيه ثانيا ، وأرجو أن أكون قد اقتربت من الغاية
التي نشدتها ، والله الموفق لسواء السبيل .

محمد مصطفى هدارة

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٦٦

الفصل الأول

صورة العصر

لعل من أهم العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التقريب الجنسي التي أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبى وهى نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتائب الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرى ، وعن طريق الموالى وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملا هاما خطيرا في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة ، وفي التقريب بين العنصر العربى والعناصر الأخرى .

والحقيقة ان سيل العناصر الفارسية بالذات كان من القوة في القرن الأول وما تلاه ، بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصدارة في العراق وفي خراسان ؛ وفي هذه المناطق التى كانت تتكلم الفارسية أصلا .

ومع هذا كله كانت عوامل التقريب تعمل عملها في ادماج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب التنافر فيما بينها ، حتى اذا أوشك القرن الأول على الانتهاء ، كان المجتمع الإسلامى قد ظهرت ملامحه واتجاهات حياته وخصائصه بوجه عام . ففى خراسان — كما فى غيرها من المناطق المفتوحة — نجد ان العرب الذين هاجروا اليها واستوطنوها قد تأقلموا فى وطنهم الجديد ، وأحسنوا أنهم جزء منه ، وبذلك اندمجوا فى حياته الاجتماعية اندماجا كاملا حتى أنهم

كانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان ، ويشربون النبيذ ، ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان ، ويشاركون في كل مظهر كان الخراسانيون يجعلونه سمة لمجتمعهم . ولم يكن معنى هذا ذوبان الجنس العربى القليل العدد في المجتمعات المحلية للأقاليم المفتوحة ، ولكن كان معناه اندماج العرب في حياة هذه المجتمعات ، وسرعة انتشار اللغة العربية وآدابها أيضا . ويبدو ان انتشار حركة التشيع في العراق وخراسان بصفة خاصة قد ساعد على سرعة اندماج العرب والأعاجم في تلك المنطقة .

ومما لا شك فيه أن العرب - بدرجة تحضرهم المحدودة - لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التى تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية على السواء ، وكانت أرقى حضارتين في العالم في ذلك الوقت ، فأقبلوا على ما فيهما من فخامة وأبهة في الثياب والدور والمأكول والمشارب وأفانين اللهو والاستمتاع بالملذات ، لهذا وجدنا فتى عربيا كيزيد بن معاوية - وهو بعد قريب من عهد الرسول - يقبل على الخمر اقبال النهم حتى انه كان يسمى « يزيد الخمر » ، كما يقبل على الصيد وأنواع الملاحى غير متحرج ، يقول المسعودى في ذلك : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقروود وفهود ومنادمة على الشراب .. وفي أيامه ظهر الفناء بمكة والمدينة واستعملت الملاحى وأظهر الناس شرب الشراب .. وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ، وي طرح له متكئا ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أنان وحشية قد ريضت وذللت بسرّج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ! » وهذا النص - ان صحح - يطلعنا على التحول الكبير الذى طرا على شكل المجتمع الاسلامى منذ وقت مبكر من القرن الاول الهجرى ، وهو يشير الى بدء تحلل المجتمع من ارتباطه بالدين والحياة الاسلامية التى أخذ بها نفسه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ،

ويقول ثون كريمير في ذلك « انه على الرغم من تحريم القرآن أدخلت في بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر في زمن متقدم ، شربوا أولا عصير العنب المغلى (الطلا) أو شرابا مأخوذا من اليونان سموه بالاسم اليونانى (رساطون) . ويشير نص المسعودى أيضا الى بدء انغماس المجتمع في المظاهر الحضارية التى تصاحب اتساع رفعة الدولة وتدفق المال اليها من كل جانب ، وما مظاهر الحضارة الا هذه التى أخذ بها أمثال يزيد بن معاوية أنفسهم ، فالحضارة كما يقول ابن خلدون « تفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه ، وهى تتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ ، والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد » .

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية العربية تتعقد بتأثرها بحضارات مختلفة ، وأصبح شرب الخمر فيها والعكوف على اللذات شيئا طبيعيا ، ومظهرا من مظاهر الحضارة في هذا العصر . ولم تكن دمشق - عاصمة الخلافة الأموية - وحدها عاكفة في جانب من جوانبها على هذا النوع من الحياة ، لأن تغير المجتمع الاسلامى لم يكن تغيرا اقليميا محليا ، بل كان تغيرا واسعا شاملا ، لهذا نرى قسما من المجتمع في الكوفة والبصرة يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، بل حتى الحجاز نفسه تعرض لهذا التغير الاجتماعى ابان القرن الاول فازدهر فيه الفناء والايقاع وفنون اللهو والعبث ، وكان فيه من يقبل على الشراب أيضا كابن هرمة وغيره . ويقول الأصفهاني انه حتى في أيام عثمان كان ابن سريج يفتنى (وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وهو أول من ضرب به على الفناء العربى بمكة) . وقد بلغ تعلق الناس بأنواع الفنون

واللهو حدا كبيرا نستطيع أن نتمثله فيما رواه الطبرى اذ قال :
أوتى هشام بن عبد الملك برجل عنده قيان وخمر وبربط . فقال :
اكسروا الطنبور على رأسه ، وضربه ، فبكى الشيخ ، فقال له
أحد الجالسين يعزبه : عليك بالصبر ! فقال : أترانى أبكى
الضرب ، انما أبكى لاحتقاره للبربط اذ سماه طنبوراً (١) .

وما ان بلغ القرن الأول غايته حتى كان تيار اللهو والمجون
قد اتخذ مجرى له فى حياة الجماعة الاسلامية ونستطيع أن نتمثل
مدى ما وصل اليه فى شخصية الوليد بن يزيد ، تلك الشخصية
التي يعتبرها طه حسين مظهر الحياة الجديدة التي أخذت تظهر فى
أول القرن الثانى للهجرة ، ويصوره بأنه كان مشغوفاً أشد الشغف
بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية ، وأنه كان متعلقاً أشد
التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة . ولكن أى نوع من المظاهر
كان لتلك الحضارة الجديدة ؟ لقد كانت تتمثل فى امعان الوليد
وكثرة من أهل عصره فى التحلل مما يفرضه عليهم دينهم . فقد
وقر فى نفوسهم بعد اتصالهم بألوان الحضارة المختلفة أن الحرية
الدينية معناها أن يفعل كل امرئ ما يحب وما يشتهى دون أن
يخشى ملاماً أو رقيباً . فما يمنع من الشراب اذن والتفنن فى
مجالسه ؟ وما يمنع من الإباحة الاجتماعية فى كل صورها وأشكالها ؟
ما الذى يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن
ينصبها فوقها لتصير مجلس شراب من نوع مبتكر جديد ، يجلب
له المتعة واللذة لمجرد احساسه بأنه يمارس حريته الدينية التي
كفلتها له الحضارة الجديدة ؟ ! وما الذى يمنع الوليد من أن يرسل
الى الكوفة فى طلب خلعتها وشعرائها الماجنين فيسمع منهم من

(١) البربط العود معرب لفظة بربط الفارسية ومعناها صدر الأوز لأنه يشبهه،
والطنبور آلة أخرى معرب لفظة دنبه بره الفارسية ومعناها آلية الحمل لأنه
يشبهها .

الوان المجون ما يطرب له ويسكر عليه ؟ وهو اذا شاء أن يستمتع بالفناء بعث بريده الى المدينة في طلب معبد ، فاذا جاء دمشق ، هيئت للوليد بركة خمر وماء ، حتى اذا انتشى من الفناء وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه في البركة فنهل منها نهلة ، ثم أتى بأتواب غيرها وتلقاه الخدم بالمجامر والطيب . والوليد لم يكن يستحي أن يسخر وسائل الدولة وأجهزتها في تلبية مطالب لهوه ، واستجابة لهواه ولذته ، فهو يكتب الى والى خراسان ليجث اليه برابط وطنابير .

أما ملابس الوليد وطبقة السراة في المجتمع فقد تألقوا فيها اشد التألق ، وتغالوا بها أشد المغالاة ، حتى بلغ من تألقهم أنهم كانوا يلبسون عقود الجواهر ويغيرونها في اليوم مرارا ، كما تغير الثياب شغفا ، ويبدو أن فتنة الوليد بمظاهر الحياة المادية واغراقه فيها ، كانت على مبدأ (أطيّب اللذات ما كان جهارا بافتضاح) الذي شاع فيما بعد في العصر العباسي ، ولكن ههنا المبدأ صدم الشعور العام ، ونجح منافسو الوليد في تهيئة أذهان الناس لاثورة عليه ، غضبا لله وللدین ، كما جاء في قولهم له : ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله .

وقد حاول بعض الباحثين من القدماء والمحدثين الدفاع عن الوليد بن يزيد باعتبار أن أغلب الروايات التي صورت لنا إباحيته مكذوبة ، ولكني أرى أن الوليد كان صورة صادقة لما وصلت اليه ناحية من الحياة الاجتماعية في عصره ، من عكوف على اللذات وانكباب على اللهو .

وما لنا ننكر على الوليد هذه الحياة العابثة ، ولاننكر على كثير من معاصريه ممن لم تتح لهم الفرص التي أتيحت للوليد فعاونته

على اللهو والعبث ، من السلطان والجاه والأموال ، فهذا هو الطبرى يروى لنا قصة تمثل الحياة الاجتماعية في بداية القرن الثانى - حوالى العصر الذى عاش فيه الوليد - يقول فيها : انه عندما هزم مروان بن محمد سليمان بن هشام بن عبد الملك ، أمر بقتل كل الأسرى ما عدا العبيد ، فأتى بخال لهشام يقال له خالد بن هشام المخزومى - وكان بادنا كثير اللحم - فأدنى اليه وهو يلث ، فقال له : يا فاسق ، أما كان لك فى خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن الخروج مع الخراء تقاتلنى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أكرهنى فأنشدك الله والرحم ! قال : وتكذب أيضا ؟ كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك فى عسكره ؟

الى هذا الحد اذن وصلت الحياة الاجتماعية فى أواخر العصر الأموى وبداية العباسى ، وبطبيعة الحال لا يمكننا ان نقول ان هذه الصورة تمثل تماما طبقات المجتمع العربى بجميع أفرادها فى ذلك العصر ، ولكنها على أية حال تعطينا فكرة واضحة عن تيار وجد فى هذا المجتمع ، ولعله أثر فى أغلبية أفراده على تفاوت هذا التأثير بينهم . وهذا لا ينفى وجود فئة جادة مقيمة على دينها ، محافظة على تقاليدها ، حتى مع غناها وثروتها ، كما أن هذا ايضا لا ينفى وجود طبقة أخرى من الفقراء المعوزين أو متوسطى الحال الذين كان يشغلهم فى هذا المجتمع كفاحهم فى سبيل الحصول على أسباب الحياة ، فما بالك بفقود الجوهر وما أشبه ؟ ومع هذا فدارس العصر يخرج بنتيجة مؤكدة تتصل بهذا الحديث ، وهى ان التهلك والمجون لم يتناسبا طرديا مع الفنى والجاه ، وعكسيا مع الفقر والمترية ، فهذا التناسب لا يمكن ان يكون حقيقيا فى أى مجتمع انسانى . فقد نجد معوزا يشتهى كسرة خبز ، ومع ذلك فهو أكثر تهتكا من الخليفة الوليد بن يزيد نفسه ذى الجاه والسلطان والأموال ، والعكس قد يكون صحيحا أيضا . والسبب فى هذا

يرجع - فى رأى - الى عناصر معينة فى شخصيات أفراد المجتمع ، كما يرجع الى طبيعة بيئتهم ونشأتهم ومدى تأثيرهم بالدين ، ومقدار خضوعهم للمؤثرات الحضارية . وعلى أية حال كانت المؤثرات والعوامل التى تدعو الى التهتك والفتنة على نطاق واسع شائعة ميسرة فى هذا العصر . فالمجتمع العربى كان يتكون من طبقات ثلاث شأن أى مجتمع : عليا ، ووسطى ، وسفلى . ولكل داخل هذه الطبقات كانت توجد عناصر مختلفة فى مكانتها الاجتماعية ، وفى الدور الذى تقوم به فى مجتمعها . كانت هناك فئة من العرب تدفقت عليهم الاموال من كل جانب : من الفتوح ومن العطاء ومن التجارة والزراعة ، وكانت هناك فئة أخرى من العرب تعيش حياة متوسطة وتكسب عيشها من أى سبيل : الخدمة فى الجيش أو المتاجرة البسيطة ، أو ما أشبهه . وكان هناك غير العرب الموسرين وغير الموسرين طبقة الموالى بالعقاقة أو بالولاء ، وهؤلاء كان عددهم ضخما فى المجتمع الاسلامى ، وكان دورهم فيه يتناسب مع ضخامة عددهم . وقد كون هؤلاء الموالى مع العرب عدة روابط متشابكة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأقبل العرب على الزواج من نسائهم - فتوثقت الصلة بين الفريقين وامتزجت العادات والثقافات .

وكان هناك عدا العرب والموالى طبقة الرقيق ، وهى طبقة هامة جدا ، على الرغم من هوان شأنها فى المكانة الاجتماعية ، اذ كان تأثيرها خطيرا جدا فى المجتمع الاسلامى . لقد انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشارا عظيما على أثر الفتوحات الواسعة التى قام بها المسلمون فى مختلف أقطار الأرض ، حتى انه لم يكن يخلو بيت فى ذلك العصر من الرقيق ، وأصبحت الجوارى فى متناول كل فرد فى المجتمع ، كل حسب مقدرته المادية . وكان مباحا للسيد أن يتسرى من شاء من جواريه ، ومن تلد منهن له تسمى أم ولد ،

وتصبح لها حقوق اجتماعية جديدة ، فلا يحق للمالكها أن يبيعها أو يهبها ، بل تبقى حلا له حتى يموت ، فتصير عندئذ حرة تجرى عليها أحكام الحرائر . وبطبيعة الحال كان أولاد الاماء من ساداتهن احرارا بحكم العرف الاجتماعى . ونستطيع أن نتصور مدى تأثير الرقيق فى المجتمع الاسلامى لو نظرنا فقط الى هذه الطبقة الجديدة من أولاد السادة من امائهن ذوات الجنسيات والعادات والثقافات المختلفة . ومما زاد فى عظم أمر هذه الطبقة تماقب الخلفاء من نسل أمهات الأولاد منذ أواخر العصر الأموى ، واعتقد أن أول هؤلاء الخلفاء هو يزيد بن الوليد الذى جاء الى الحكم فى أعقاب الربع الأول من القرن الثانى (عام ١٢٦ هـ) وأمه اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد .

وتماقب الخلفاء ممن أمهاتهم أمهات أولاد بعد ذلك حتى لا نكد نعثر الا على أفراد منهم من نسل أمهات عربيات ، وخاصة فى العصر العباسى . بل هناك ظاهرة تسترعى الانتباه حقا وهى زواج الخلفاء بحرائر عربيات وندرة وجود نسل منهن ، بعكس كثرة نسل الخلفاء من الجوارى ، فالرشيد مثلا تزوج بست حرائر أنجب ولدين من اثنين منهن ، ولم ينجب من بعتيه ، وتسرى إحدى وعشرين جارية أنجب منهن عشرة من الذكور ، وأربع عشرة بنتا . ولا بد أنه تسرى عددا آخر غير هؤلاء لم ينجب منهن . والرشيد مجرد مثال يصدق على غيره من خلفاء هذا العصر ، وهو يطعننا الى أى مدى كان المجتمع العربى يتحول من ناحية تكوينه الجنسى ، ويستتبع ذلك تطور خصائصه النفسية والفكرية بوجه عام ، وتبدل ذوقه وميوله .

ونرى هذا التبدل واضحا فى كل شىء ، فى النفوس والعقول ، وفى المظاهر الشكلية أيضا .

فقد تأثرت الأرياء والأعياد بنظم الحضارات الأجنبية وكذلك

حركة البناء والعمران والأطعمة والأشربة ، وأصبح الناس في القرن الثانى يهتمون باقامة القصور الفخمة ، وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى ، وانشاء أحواض للسباحة ، وحدائق للحيوان . ولعل من أروع ما حكاه الرواة عن ترف البناء ذلك الوصف الذى نقلوه لنا عن الايوان الذى بناه الأمين والذى كان يسافر فيه البصر ، وقد جعل كالبيضة بياضا ، ثم ذهب بالابرين المخالف بينه باللازورد ، وكان ذا أبواب عظام ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها بالجواهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، نقش بتصاوير الذهب ، وتمائيل العقيان ، ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد . وأخذت ألوان الطعام تتعقد أيضا بتعقد اسباب الحضارة حتى لقد روى طيفور أن جعفر بن محمد الأنماطى الفقيه تغدى عند المأمون فذكر أنه وضع على المائدة ثلاثمائة لون من الطعام . وتغالى الكثيرون من الأغنياء فى شراء الجواهر الكريمة ، أكثر مما كان فى عهد الوليد بن يزيد ، حتى ان صالحا صاحب المصلى أيام هارون الرشيد اشترى فصا من عون العبادى بعشرين ألف دينار .

ولعلنا نستطيع أن نقول ان تأسيس بغداد فى أول الخلافة العباسية كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الاسلامى واغراقه فى الحضارة ومظاهرها المادية ، وانغماسه أكثر فأكثر فى أساليب الحياة الأجنبية عنه ، تلك التى كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها . وحتى تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسى — كما يقول عبد العزيز الدورى — اذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقاما ساميا يصعب الوصول اليه ، كما أن ضخامة القصر والايوان تظهر روعة الملك ، وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السلطان فى أحياء منفصلة يمكن اغلاقها ليلا وحراستها بصورة دقيقة ، يشير الى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس ، والتى

تعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ، ومع الديمقراطية الإسلامية على حد سواء .

والحقيقة ان انتقال الدولة الى المشرق جعل الحياة الاجتماعية — على حد قول الدكتور طه الحاجرى — معقدة مشتبكة النواحي اكثر من ذى قبل ، اذ تغالى المجتمع فى انصرافه الى الناحية المادية ، فأصبح المال ميزان الرجال ، وأخذ يتردد فى الأمثلة الجارية فى بغداد : المال مال وما سواه محال . ولهذا توسل الناس الى المال بثتى الوسائل ، لا يعفون عن محرم ، ولا يتورعون عن خبيث . ولا يعبأون أن يتخذوا من المعانى الكريمة أسبابا يخادعون بها ، حرصا عليه واجلالا له ، حتى أصبحت مظاهر الدين شركا من شركائه . ويمضى الدكتور طه الحاجرى فى وصف هذا التطور الاجتماعى فيقول : ان هناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة اشد الاتصال ، وتعد فى حقيقة الأمر من أولى العوامل المؤثرة فى قيامها ، وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد ، وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب ، وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم ، اذ كانت ثغر العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية ، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند وام العراق .

وكان من نتيجة هذا الاستقرار الاقتصادى فى البصرة وهذا الثراء ظهور حركة علمية نشيطة من علماء الكلام وغيرهم ، كما نشأت فى الوقت نفسه طبقة من المجان المستهترين بجميع القيم . وظهر هذين التيارين المتضادين كان نتيجة طبيعية لتدفق الأموال وشيوع الرخاء فى هذه المدينة التجارية النشيطة .

ولم تلبث بغداد بعد انشائها أن نافست البصرة فى ثروتها ورخائها ، ولم يغفل المنصور — عند اختيار موقعها — عن أهمية الوضع الاقتصادى فى حياة هذه المدينة ، فهو يقول : « انما أريد

موضعا يرتفق الناس به ، ويوافقهم مع موافقته لى ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد المئونة ، فانى ان أقمت فى موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شىء ، غلت الأسعار وقلت المئونة ، وشق ذلك على الناس » .

وهذا الاهتمام الكبير باستقرار الأوضاع الاقتصادية وتثبيت أسعار السلع الضرورية التى هى عماد الناس فى حياتهم فى كل مجتمع انسانى ، قلما نجده عند خلفاء بنى أمية فى القرن الأول وأوائل الثانى ، لهذا لا نستغرب ذلك الرخاء العظيم الذى ساد الحياة الإسلامية حتى عصر هارون الرشيد ، كما لا نستغرب ذلك الثراء الفاحش الذى بلغته الدولة فى سنوات قلائل من الحكم العباسى ، ذلك ان غنى الأفراد يستتبع فى ميزان الاقتصاد غنى الدولة . وقد جاء فى بعض المصادر أن الضرائب بلغت فى عهد هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليوناً من الدنانير ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ من غلة الأرض .

وبلغت جباية الدولة فى أيام المأمون أربعمائة مليون درهم ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته ، ومع أن الضرائب قد كثرت وتنوعت أيام العباسيين تنوعاً كبيراً إلا أننا لم نسمع تذكراً بين الناس من ثقل هذه الضرائب ، والسبب فى ذلك أنها كانت متناسبة - فيما يبدو - مع الرقى الاقتصادى الذى بلغته الدولة فى شتى المرافق وخاصة الصناعة .

وكانت النهضة الصناعية من بين أسباب الثروة التى أحرزتها الدولة الإسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب الرقى الفكرى والنهضة العملية بمظاهرها وفروعها المختلفة . وقد أسهمت فى اشاعة عنصر الرخاء والطمانينة بين طبقات الشعب على اختلافها فى القرن الثانى ، فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التى كانت وما تزال مثاراً للخيال ، ودلالة على الترف فى أذهان الناس ممن يقرأون قصص ألف ليلة وليلة وما أشبهه .

ومما يدلنا على اختلاف النظام الاقتصادي في العصر العباسي عن نظام الأمويين تلك الملاحظة الطريفة التي سجلها ابن خلدون حين قال ان أعطية بنى أمية كان أكثرها من الابل ، أما في عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال وتخوت الثياب وأعداد الخيل بمراكبها . وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الأمويين كانوا يأخذون بمذاهب العرب ، وربما كان لذلك السبب نصيب من الصحة ، ولكنه ليس السبب الأهم ، فتطور الحياة الاقتصادية هو الأساس الأول لوجود مثل هذا الفارق .

والحقيقة ان تطور المجتمع في منتصف القرن الثاني بعد قيام الدولة العباسية وأغراقه في مظاهر الحياة المادية ، يمكن أن يتصور في حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم . فحركة العمران وبناء القصور الفخمة كانت ماضية في طريقها أيام المنصور وخاصة منذ ابنتى مدينته الجديدة بغداد وأخذت الثروة تتدفق اليها من كل مكان كما بينا ، ومع ذلك يجمع الرواة على أنه لم ير في دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يسببه اللهو والعبث . وقد غضب المنصور غضبا شديدا حين سمع في قصره خادما يضرب للجوارى بالطنبور ، فقام اليه وحطمه على رأسه . وكتب عامل البريد الى المنصور بأن اليه في حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله وكتب اليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟ انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » . وحدث أن بطح المنصور كاتباً له فنظر الى سراويله فاذا بها من الكتان فأمر بضربه إقائلا : لا تلبس سراويل كتان فانه من السرف . وفي عهد المنصور - فيما يبدو - بدأ ظهور الزنادقة والمجان يستشرى في المجتمع الاسلامي ، كما نفهم من سياق خبر أورده الطبري . وقد أعانت على ظهور هذه الطبقة مجموعة من المؤثرات المختلفة : من سياسية وثقافية الى جانب التأثير الاجتماعي . ولكن يظهر أيضا أن حركة الزنادقة في هذه

الفترة لم تكن قد وصلت الى حد الخطر الذى يندر المجتمع الاسلامى بالانهيار .

وحين ولى المهدي الخلافة وجد خزانة الدولة عامرة بالأموال التى اكتنزها المنصور فأسرف المهدي اسرافا شديدا ، ويقول الخطيب البغدادي ان المنصور ترك في بيت المال شيئا لم يجمعه خليفة قط من قبله ، فلما صارت الخلافة الى المهدي قسم ذلك وأنفقه . وهذه الثروة الطائلة التى خلفها المنصور اعترف بها في وصيته لابنه اذ يقول له : « وانظر هذه المدينة (بغداد) قد جمعت لك فيها من الأموال ما ان تسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا » .

وكانت شخصية المهدي أقل تزمنا من المنصور ، فكان يحب السماع ويستعثر بذكر النساء ، ولكنه كان لا يشرب النبيذ ، وان كان الطبري يقول انه لم يكن يتحرج فيه ، ولكنه كان لا يشتهي . وقد نشطت حركة الزنادقة في عهده نشاطا كبيرا حتى لاح خطرهما واستعلن شرهما ، ولهذا نجد المهدي في أخبار عام ١٦٦ هـ يطلب الزنادقة في كل مكان فاذا أقرؤا استتابهم وخلقى سبيلهم ، فلما لم تجد معهم هذه الوسيلة نراه يأمر بحبسهم . وحين عاين المهدي أن حبسهم لم ينزع ما بنفوسهم جد في طلبهم والبحث عنهم وقتلهم ، وذلك ابتداء من عام ١٦٧ هـ ، وأنشأ لأول مرة — فيما نعلم — منصب « صاحب الزنادقة » فكان فيه أولا عمر الكلواذي وعندما توفي تولى مكانه حمادوية ، وعلى يده قتل عدد كبير من الزنادقة في بغداد عام ١٦٨ هـ . أما ترف المهدي فلم يكن بالشئ الكثير ، فهو لم يتعد في هذا الميدان أن يكون أول من لعب الصوالجة في الاسلام ، وأول خليفة حمل له الثلج الى مكة في أثناء الحج .

ولم تنتقل الحياة الاجتماعية نقلة كبيرة أيام الهادي ، فمع انه

كان صاحب شراب ومجون ، الا انه جد في طلب الزنادقة والقضاء عليهم طبقا لوصية أبيه المهدي ، ولكن هذه النقلة الاجتماعية الخطيرة حدثت أيام الرشيد ، اذ كانت عناصر الاستقرار في الدولة قد رسخت ، وتدفق المال اليها من كل مكان ، فاشتد اغراق الناس في ألوان الحضارة واندماجهم فيها ، وكان شعارهم في ذلك (لا تؤخر لذة اليوم لغد) كما جاء في قول هبة الله ابن ابراهيم بن المهدي وأصبحنا نجد أن عشق الرجل للمرأة وعشق المرأة للرجل لا ينظر اليه على أنه من الأخبار الشخصية التي يجب أن تكتم عن الناس ، بل نجد في هذا المضمار « علية بنت المهدي » تهوى خادمين في قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحة . كما نجد أيضا أن عادة شرب الخمر قد مست حتى البيئات الدينية ، فإلخطيب البغدادي يذكر لنا أن محمد بن الضو المحدث (ليس بمحل لأن يؤخذ عنه العلم لأنه كان أحد المتهتكين بشرب الخمر ، والمجاهرة بالفجور ، وكان أبو نواس يزوره في الكوفة ، في بيت خمار بالحيرة يقال له جابر) ونجد في قصر الرشيد لأول مرة ابن أبي مریم المدني (وكان مضحكا له محدثا فكيها) أي أنه وجد في ذلك العصر ما يسمى بمضحك الملك ، وهو منصب كان موجودا - فيما يبدو - عند ملوك الفرس الأقدمين .

ومع شيوع مثل هذه المظاهر الحضارية اللاهية منذ منتصف القرن الثاني ، الا اننا نستطيع أن نقول ان الحياة الاجتماعية حتى عصر هارون الرشيد كانت قائمة على شيء من التوازن بين الجسد واللهو ، وهذا التوازن كان متحققا في شخصية الرشيد نفسه ، اذ نجد في أخباره المؤكدة انه كان الى جانب حب اللهو والعبث والاغراق في الجانب المادي من الحضارة التي صنعتها المؤثرات الأجنبية المختلفة ، يستمع الى نصائح الوعاظ والصالحين ، فتنهمر دموعه من خشية الله . كما كان محافظا - فيما يقول المؤرخون - على صلواته ، بل ان الطبري يؤكد انه كان يصلى في كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا ، الا أن تعرض له علة . ولكن حين

ولى الأمين الخلافة فقد أثر هذا التوازن فى الحياة الاجتماعية ، فصارت اغراقا فى اللهو ، وانحرافا عن كل شعائر الدين ، بل لقد ظهر فى هذا الخليفة أثر الشذوذ الجنسى الذى كان قد استفحل امره فى هذه الفترة ، أما اسراف الأمين واغراقه فى اللهو فكان شيئا لم يسمع به القرن الأول ولا أوائل الثانى أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين الأولين . لقد وجه الأمين الى جميع البلدان فى طلب الملهم وضمهم اليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتياع فرس الدواب ، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبى جعفر فى بغداد للصوالة واللعب ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خاوته ولهوه ولعبه فى شتى القصور التى يملكها : الخلد ، الخيزرانية ، بستان موسى ، قصر عبدوية ، المعلى ، رقة كلواذى ، باب الأنبار ، نبارى ، الهوب . كما أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلفة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس (أو الدلفين) وانفق فى عملها مالا عظيما وقد ذكر أبو نواس فى شعره بعض هذه الحراقات . وكان من أثر فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية أيام الأمين ، وانفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيه أن ظهر الاختلال واضحا فى البناء الاجتماعى ، وازدادت الهوة اتساعا بين الطبقات المختلفة ، وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتلألئة بالمال والجوهر عن جانبها الفقير المحطم الذى لا يجد قوت يومه .

وازدادت صورة التناقض الاجتماعى وضوحا حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغداد لحصار مجهد عنيف ، حينئذ ظهر شعبها الكادح الفقير ، ولم يكن الفقير من بين هؤلاء هو الذى وصفه فقهاء العراق بأنه من كان دخله مائتى درهم فى السنة ، أى ما يعادل الحد الأدنى من العطاء ، ولكن كان هؤلاء الفقراء لا يملكون من الدنيا شيئا بعد اتساع الهوة بين الطبقات ، فهم عبارة عن آلاف مؤلفة من الرعاع والشطار ، لا تربطهم بالحياة فى بغداد رابطة ما ، فهم لا يملكون عقارا ولا أموالا ، بل لا يجدون عملا يقتاتون منه ولهذا انطلقوا على سجيبتهم فى هذه الفتنة ،

يقاتلون ولا يدرون لحساب من هذا القتال . وكل ما كان يدور في أذهانهم أن هذه الحرب ربما نقلتهم من الوهدة التي يتردون فيها الى حيث يستطيعون رؤية وجه الحياة . وربما كان أملهم أن تخدمهم هذه الحروب فتقدم لبطونهم الخاوية الغذاء ، ولأجسادهم العارية الكساء الذي يقيهم الحر والزمهرير . ويصف لنا الطبري هذه الفتنة فيقول : « لقد نقب أهل السجون السجون وخرجوا منها ، وفتن الناس ، ووئب على أهل الصلاح الدعار والشطار ، فعز الفاجر وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس » .

والى هنا كان تيار الحياة العابثة اللاهية قد بلغ أقصى مداه . وتفجرت بغداد بعد فتنة الأمين والمأمون بضروب الفسق وأنواع المجون ، فظهرت طبقة من الناس تقطع الطريق وتأخذ الغلمان والنساء علانية ، فلما رأى الناس ذلك وما أظهروا من الفساد والظلم والبغى ، قام صلحاء كل ربض ودرب فمشى بعضهم الى بعض واتفقوا على قمعهم ، فقام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته ومحلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه الى ذلك ، وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون ، ثم قام من بعده رجل يقال له سهل ابن سلامة الأنصاري ، فدعا الناس أيضا الى ما دعا اليه خالد ، وزاد عليه العمل بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفا في عنقه فأثاه خاق كثير ، فأخذوا يطوفون ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ليمنعوا الخفارة التي فرضها الفساق وهي نوع من ابتزاز الأموال .

وكان ظهور هذه الفئة الصالحة من الناس التي كان يطلق عليها اسم المطوعة انتكاسا لتيار اللهو والعبث ، وتأيدا للجانب الجاد في الحياة الاجتماعية ، وتوكيدا لتيار الزهد الذي كان انعكاسا صادقا في نفوس المتقين ضد الحياة العابثة الماجنة التي كانت تسود مجتمعهم . والحقيقة ان هذا التيار المضاد لم يكن شيئا جديدا في

المجتمع الاسلامى فى القرن الثانى ، ولكنه كان موجودا دائما ، وكان يقوى ويشتد كلما اغرق المجتمع فى لهوه وترفه ، وانكب على ملذاته وملاهيته . ولم يكن استفرافنا فى تصوير الجانب اللاهى من المجتمع دون الجاد انكارا لوجود هذا الجانب السوى أو غضا من شأنه ، ولكننا صورنا مدى الانحراف الذى صار اليه المجتمع الاسلامى متأثرا بالحضارات الأجنبية والعوامل الاقتصادية والسياسية المختلفة على اعتبار أن الأصل فى المجتمع الاسلامى ارتكازه على أسس الدين والتقوى ، وأخذه بكتاب الله وسنة رسوله ، ليس هذا فحسب ، بل ان الميل للزهادة كان شيئا أصيلا فى الحياة الاسلامية منذ ركن الاسلام لواءه ، فهو يحض على الزهادة والقناعة والرضا من عرض الدنيا بالقليل . وقد سئل الرسول صاوات الله عليه عن عقل الناس فقال : « همتهم المسابقة الى ربهم عز وجل ، والمسارعة الى ما يرضيه ، وزهدوا فى فضول الدنيا ورياستها ونعيمها ، وهانت عليهم ، فصبروا قليلا واستراحوا طويلا » .

بل لقد اشتد هذا الميل الزهدى وتطور فى القرن الثانى ليدخل فى دور التصوف الحقيقى ، ويقال ان كلمة الصوفى أطلقت لأول مرة على أبى هاشم الكوفى المتوفى عام ١٥٠ هـ الذى يقول فيه جامى فى (نفحات الانس) : انه تقدمه رجال كانت لهم قدم فى الزهد والورع وحسن التوكل وفى طريق المحبة ، ولكنه كان أول من تسمى بالصوفى .

هذه اذن صورة المجتمع العربى فى القرن الثانى ، صورة زاخرة بالحياة والحركة ، مليئة بالتناقضات ، فيها الغنى الفاحش والفقر المدقع ، وفيها الاغراق فى الالحاد والمجون ، والزهادة المفرطة التى تقترب من الرهبانية والتبتل ، وفيها العلماء العاكفون على مختلف فروع المعرفة ، والعاثون الذين يعيشون على التبتل والفراغ واللهم ، انها صورة مجتمع حى متطور ، وفى قلب هذه الصورة وجد الخليفة المؤمن .

الفصل الثاني

ميلاد ونشأة

البيت العباسي له أصل ثابت في تاريخ الاسلام ، فهو ينتسب الى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف ، الذي ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنوات ، فكأنه — وهو عم الرسول صلوات الله عليه — أسن منه بثلاث سنوات فحسب . كان العباس من سادة بنى هاشم وعقلائهم ، ولما بشر محمد بالاسلام ، وقف الى جانبه وان لم يعلن اسلامه ، وهو الذي تولى احكام الأمر للرسول مع الانصار عند الهجرة ، فكان الرسول صلوات الله عليه يحبه ويكرمه . وامتدت حياته الى خلافة عثمان رضى الله عنه . وكان ثانياً أولاده الستة عبد الله قد ولد قبل الهجرة بسنتين ، وقد دعا له الرسول : اللهم علمه التاويل ، فكان أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها ، مع فقهه في الدين . ولهذا كان عمر يدخله — على صفر سنه — في مجلس شوره ، ويستعين برأيه في كثير مما يعرض له من أمور .

وكان على أصغر أولاد عبد الله ، أجمل قرشى على وجه الأرض فيما يقولون واشدهم ايماناً ، وقد أعقب اثنين وعشرين ذكراً أكبرهم محمد وهو والد ابراهيم الامام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين استطاعوا أن يثلوا عرش الأمويين ويقيموا دولة بنى العباس على أنقاضه .

أرومة عريقة يفتخر بها المأمون من ناحية اجداد أبيه الرشيد ،

أما من ناحية أمه فالأمر جد مختلف ، ذلك انها جارية فارسية من كورة باذغيس في مقاطعة خراسان وهى فى الطريق من هراة الى مرو الرود ، تمتد بين نهر هراة من الغرب ومياه نهر مرغاب الأعلى من الشرق . وهذه الفتاة الباذغيسية يحاول بعض الباحثين أن يجعلها تمت الى أسرة عريقة فى المجد من الأسر الفارسية ، ولكننا لا نكاد نعر لها على نسب ينضاف الى اسمها « مراجل » .

ومن العجيب أن التنافس بين الأخوين محمد « الأمين » وعبد الله « المأمون » بدأ بينهما قبل ولادتهما ، فقد روى المسعودى أن أم جعفر (زبيدة) كانت لا تعلق من الرشيد ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء ، وشكا ذلك اليه ، فأشار عليه بأن يغيرها لأن ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة ، فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل ، فغارت سارة عند ذلك فعلمت باسحق . فاشترى الرشيد أم المأمون مراجل الباذغيسية فعلمت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلمت بمحمد .

وهكذا شاء الله أن يكون عبد الله المأمون اكبر أولاد الرشيد ، وأن يعقبه محمد الأمين بفترة قصيرة تتراوح بين شهر واحد وستة اشهر كما نستقى من أقوال المؤرخين . ولكن اذا كان المأمون قد اكتسب ميزة بسبق ميلاده ، فإن الأمين قد فاقه بنسب أمه العريق حتى لقد قيل : ليس فى خلفاء بنى العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه .

ولد عبد الله فى قرية على ضفة نهر عيسى تسمى الياسرية ، بينها وبين بغداد ميلان ويبدو أن الرشيد كان مقيما فيها بعيدا عن دسائس السياسة فى بغداد ، فقد كان يمر وقتذاك بمحنة قاسية ، اذ كان أخوه الهادى يستخدم ضده كل وسائل الضغط ليسلب حقه فى ولاية العهد .

والحقيقة ان ولاية العهد التى ابتدعها الأمويون منذ عهد

معاوية لابنه يزيد بالخلافة ، كانت من الأسباب القوية التى هدمت
كيان الدولة الأموية ، وأثارت الشقاق العنيف فى الدولة العباسية
أيضا . واستمرت ولاية العهد سببا للنزاع فى الدولة العباسية منذ
بدايتها . فقد أوصى أبو العباس السفاح بالخلافة من بعده لأخيه
أبى جعفر ثم لعيسى بن موسى . وعندما تولى أبو جعفر الخلافة
أراد أن يقدم ابنه المهدي على عيسى .

ولم تنته مأساة عيسى بن موسى الى هذا الحد ، فما ان ولى
المهدي الخلافة حتى بدأ يمارس ضغطه على الشيخ المسكين ليتنازل
عن ولايته للعهد مرة أخرى ، واستطاع أن يؤلب العباسيين ضده
فأبوا الا خلعه وشتمه فى وجهه ، واحتبس المهدي حتى أجاب الى
الخلع لقاء عشرة آلاف ألف درهم وضياع ، فأسندت ولاية العهد
الى موسى بن المهدي . وقد هجا الشعراء عيسى لتخاذله ، وما كان
يقوى وهو فى سنه العالية على النضال فى سبيل الخلافة .

وبعد انقضاء ست سنوات على هذه الحادثة نسي المهدي ما تجره
ولاية العهد الثنائية من شقاء فأخذ البيعة على قواده لهارون بعد
أخيه موسى وسماه الرشيد ، ويبدو أن المهدي أراد أن يكافئ
ابنه هارون لحسن بلائه فى الحرب ضد الروم التى دارت رحاها
شهورا طويلة ، وأحرز فيها هارون نصرا مؤزرا ، وذلك لأن اعلان
ولايته للعهد جاء بعد عودته من الحرب مباشرة . ولما مات المهدي
وتولى الخلافة ابنه موسى الهادي أراد خلع أخيه هارون والبيعة
لابنه جعفر بن موسى ، وتابعه على ذلك القواد .

وكان يحيى بن خالد البرمكى يقف وحده الى جانب الرشيد
ليشد أزره بعد أن مال الى اجابة أخيه حتى لا يفسد عليه حياته ،
وتعرض للقتل حين علم الهادي أنه يحرض أخاه على الاستمساك
بحقه ، ولكنه استطاع بحسن تدبيره أن يفلت من انتقام الهادي .
وبعثت الخيزران أم الهادي والرشيد الى يحيى بن خالد تتوسل
اليه أن يدع الرشيد يجيب أخاه الى الخلع لأنها تخشى عليه سطوته .

فأبى يحيى أن يلين ، وما هى الا فترة يسيرة حتى مات الهادى فتناثرت الشائعات بأن أمه الخيزران قد دست اليه من جواريتها من قتله بالجلوس على وجهه . وكان قد أصابته علة .

ولا نستطيع أن نقطع برأى فى صحة هذا الاتهام ، فهناك دلائل تزكيه ، وعلى أية حال لقد انقضت المحنة التى عاش فيها هارون بسبب الخلافة على ولاية العهد بموت أخيه الهادى . ويروى أن يحيى بن خالد ذهب الى الرشيد ليشره بالخلافة فى الليلة نفسها التى مات فيها الهادى ، ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، فوجده نائما فى لحاف بلا ازار ، فقال : قم يا أمير المؤمنين ! فقال له الرشيد : كم تروعنى أعجابا منك بخلافتى ، وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ، فان بلغه هذا فما تكون حالى ؟ وكان نداء يحيى لهارون بقوله : يا أمير المؤمنين قد أدخل فى قلبه الفزع خوفا من نكاية أخيه . فلما بشره يحيى بالخلافة ، أخذ يتشاوران فى الأمر ، وبينما هما كذلك اذ طلع رسول فقال للرشيد : قد ولد لك غلام ! فقال الرشيد دون تردد : سميته عبد الله ! .

وهكذا كانت ولادة المأمون فى الليلة التى انتهت فيها محنة أبيه الرشيد ، وفى اللحظة التى بدأ يمارس فيها سلطاته كخليفة للمسلمين . ولا شك أن الرشيد استبشر كثيرا بمولد ابنه فى هذه الظروف السعيدة التى واتته ، ليس هذا فحسب ، بل ان عبد الله هو أول غلام يولد للرشيد ، وللطفل الأول دائما فى نفس والده قدر من الاعزاز والمحبة يزيد عما لآخوته التالين له فى الميلاد . أما اختيار الرشيد لاسم عبد الله دون تردد منه ، فقد كان تعبيرا عما فى نفسه من اعتراف بفضل الله عليه ، اذ نجاه مما كان فيه من هم وضيق ، دون أن يدبر للأمر بهذا الاحكام والبساطة التى تم بها . وعلى الرغم من توالى أبناء الرشيد بعد ذلك اذ بلغ عددهم كما ذكرنا أحد عشر ما عدا المأمون ، الا أنه ظل يحب المأمون ويؤثره كل الايثار ، ربما لأنه أول أولاده ، ولأنه استبشر بولادته مع قدوم

الخلافة وانتهاء الأزمة التى أحاطت به - كما سبق أن بينت - وربما لأنه فقد أمه وهو بعد طفل صغير ، لا يتجاوز عمره أياما ، فقد أكدت المصادر التاريخية وفاتها فى نفاسها به .

فقد نشأ المأمون اذن محروما من عطف أمه عليه ، دون اخوته جميعا الذين تمتعوا بعطف أمهاتهم ورعايتهن لهم . يضاف الى ذلك كله اعجاب الرشيد بذكاء ابنه وظهور مخايل النجابة عليه وانصرافه الى العلم دون مظاهر اللهو والعبث ، ويروى فى ذلك أن الرشيد دخل على المأمون وهو ينظر فى كتاب فقال له : ما هذا ؟ فأجاب المأمون : كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة ، فقال الرشيد : الحمد لله الذى رزقنى من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه .

وكثيرا ما كان الرشيد يبدي اعجابه بصفات المأمون النادرة فى خلقه وشخصيته اعجاب الأب الفخور بولده ، كما يتضح لنا فى قوله : انى لاتعترف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادي ، ولو شاء أن أنسبه الى الرابع لنسبته يعنى نفسه .

أما صفات المأمون الجسمية وهو طفل صغير ، فمن الواضح أنها مزيج من السمات الآرية والعربية ، ونحن لا نعلم وصفه فى طفولته ، ولكن المؤرخين وصفوه لنا كبيرا ، ومن صفاته الثابتة التى لا تتغير فيما بين الطفولة والرجولة انه كان أبيض تعلوه شقرة (وقيل أسمر ، ولكن الاتفاق على بياضه أكثر ، وهو أقرب الى المعقول) ، ضيق الجبهة ، بخده خال أسود ، واسع العينين اسودهما . ولم يكن المأمون وهو طفل جميل الصورة بحيث يلفت النظر اليه ، ولا كان أجمل اخوته مع أن المؤرخين يقولون ان جمال ولد الخلافة انتهى الى أولاد الرشيد . ولعلمهم يقصدون بعض أولاد الرشيد مثل محمد (الأمين) وأبى عيسى الذى اشتهر بجمال نادر فائق المثال ، حتى انه كان اذا عزم على الركوب جلس له الناس حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء ! ويروى أن الرشيد قال

لابنه أبى عيسى يوما - وهو بعد صبي صغير - « ليت جمالك لعبد الله » يعنى المأمون ، فقال له أبو عيسى : « على أن حظك منك لى » .

وهذه الرواية تبين الى حد بعيد حب الرشيد الجارف لابنه عبد الله حتى ليتمنى أن ينقل جمال أخيه أبى عيسى اليه ليتم له كل شيء ، وفى جواب أبى عيسى دلالة أخرى على ايثار الرشيد للمأمون أكثر بكثير من بقية أبنائه الآخرين . وبالرغم من ذلك لا نجد نفرة بين المأمون وأخوته ، بل نراه يودهم جميعا ويودونه . وكان يحب أخاه أبا عيسى حبا شديدا ، فلما مات أبو عيسى ، صلى عليه المأمون ونزل فى قبره ، وامتنع عن الطعام أياما حزنا عليه .

ولم تكن علاقته بالأمين علاقة جفوة ، ولكنها السياسة التى فرقت بين الأخوين منذ الصغر ، وأوقعت بينهما الخلاف ، على الرغم من أن شخصية المأمون فى رزائته وجدته وانصرافه الى العلم والاطلاع تختلف اختلافا بينا عن شخصية الأمين الذى يحب العبث والمجون ويؤثر الرفاهية على الدرس والقراءة .

وكانت أم الأمين تشعر بحب الرشيد للمأمون وعطفه الزائد عليه أكثر بكثير مما كانت تحسه تجاه ابنها الأمين ، فأكلت الغيرة قلبها وكلمت الرشيد فى ذلك ، فأراد أن يثبت لها عمليا أن المأمون جدير بالحب لذكائه وفطنته وحسن تقديره للأمور ، فوجه الى ولديه خادما يقول لكل منهما فى خلوة : ماذا تفعل اذا أفضت الخلافة إليك ؟ فأما الأمين فقال للخادم : أقطعك وأعطيك ، وأما المأمون فقد قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال : أتسألنى عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ؟ انى لأرجو أن نكون جميعا فداء له ، فقال الرشيد لأم جعفر : كيف ترين ؟ فسكتت عن الجواب .

ولعل فيما رواه أبو محمد اليزيدى مؤدب المأمون دلالة على قوة شخصيته ورزائته منذ كان طفلا ، قال اليزيدى : كنت أؤدب

المأمون فأتيته يوما فوجهت اليه بعض الخدم يعلمه بمكانى فأبطأ ، ثم وجهت اليه آخر فأبطأ ، فقلت : ان هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة ، فقليل : أجل ، ومع هذا انه اذا فارقت تعزم على خدمه ولقوا منه أذى شديدا ، فقومه بالأدب . فلما خرج أمرت بحمله فضربته سبع درر (١) . قال : فانه ليدلك عينيه من البكاء اذ قيل : هذا جعفر بن يحيى قد أقبل ، فأخذ مندبلا فمسح عينيه من البكاء وجمع ثيابه وقام الى فرشه فقعده متريعا ، ثم قال : ليدخل . فدخل فقمت عن المجلس وخفت أن يشكونى اليه ، فأقبل عليه بوجهه وحده حتى أضحكه ، ثم خرج فجئت فقلت : لقد خفت أن تشكونى الى جعفر ، فقال : يا أبا محمد ما كنت أطلع الرشيد على هذه ، فكيف بجعفر ، انى أحتاج الى أدب ؟ !

وأبو محمد اليزيدى هو واحد من كثيرين من خير علماء هذا العصر كان المأمون يتلقى العلم على أيديهم ، وكان اليزيدى عفيفا تقيا ، وشاعرا مجيدا ، لا يتعدى في شعره الموعظة والحكمة ، وكان اذا ذهب الى الحج وأقبل عليه أهل الأدب ليؤانسوه يقول لهم : ما شيء أحب الى من مشاهدتكم ومحادثتكم ، ولكن هذا بلد يتقرب فيه الى الله بالأعمال الصالحة ، وانما أقيم شهرا أو شهرين ، ثم أنصرف الى بلدى ، فان رأيتم الا تجروا فى مجلسى رفثا ولا خنا ولا هجاء فى شعر ولا غيره فافعلوا . وهكذا كان المأمون يتلقى دروس الأدب على اليزيدى ، وكان يتلقى مع الأدب دروسا فى العفة والتقوى وحسن الخلق ، ولم يكن اليزيدى يتورع عن تقويمه بالعضا كما رأينا .

وكان المأمون يتلقى علم العربية على الكسائى الذى علم أباه من قبله ، وهو أحد علماء الكوفة البارزين فى القراءات والنحو واللفظ ، وكان يسمع المأمون الحديث من هشيم بن بشر ، وعباد ابن العوام ، ويوسف بن عطية ، وأبى معاوية الضير ، واسماعيل

(١) الدرة . ما يضرب به .

ابن عليّة ، وحجاج الأعور ومن في طبقتهم . وكان من شيوخه في الحديث أيضا أبوه هارون . وقد انكب المأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته ، وسمع منه كثيرون ورووا عنه ، وقد ساعدته على رواية الحديث ذاكرته القوية الحافظة ، التي كانت مضرب المثل . ذكر أن الرشيد أراد الحج فدخل الكوفة وطلب المحدثين فلم يتخاف الا عبد الله بن ادريس وعيسى بن يونس ، فبعث اليهما الأمين والمأمون فحدثهما ابن ادريس بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم أأذن لي أن أعيدها من حفظي ؟ قال : فأعدها ، فعجب من حفظه .

وكان المأمون يقرأ الفقه على الحسن اللؤلؤي ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة انه برع في الفقه على مذهب أبي حنيفة . وكانت له مع اللؤلؤي نادرة لطيفة تدل على اعتداد المأمون بنفسه ، ذلك أن اللؤلؤي لاحظ في أثناء درس له من دروس الفقه أن المأمون قد أخذته سنة من النوم ، فقال له : نمت أيها الأمير ! فكانه بدلا من أن يفاد المكان في صمت أراد أن يوقظ المأمون ليشعره بخطأ ارتكبه ، ولهذا نرى المأمون يحتد عليه - وكانت فيه حدة أحيانا - ويقول : سوقي ورب الكعبة ، وينادي غلمانة ليأخذوا بيد أستاذة ، فلما بلغ الرشيد ما صنع لم يفضب على ابنه ، بل رحب بما فعله وتمثل بقول الشاعر مفتخرا بولده :

وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتفرس الا في منابتها النخل (١)
وهذه الحدة التي نلمحها أحيانا في شخصية المأمون والتي شكّا منها خدمه الى مؤدبه اليزيدي ، انما تدل على فرط نشاطه في طفولته ، وأنه لم يكن مستكيناً هادئاً ، ينفق وقته كله في مذاكرة العلم والتثقف ، بل يتشاغل أحيانا بشيء من اللهو البريء . وهذه الحدة في طبعه خفت الى حد بعيد كلما دخل في طور الشباب والرجولة ، الا من آثار قليلة في حالات يفقد الإنسان فيها شعوره .

(١) الوشيح : الشجر الذي تصنع منه الرماح .

ولكن هذه الحدة لا ينبغي أن تكون سببا في انحرافات جنسية
في أيام الصبا تبلغ بالمأمون الى درجة جده كما جاء في بعض الروايات
التي تقول أن أباه حده في جارية من جواريه ، ويؤكدون ذلك بما قاله
الرقاشي الشاعر حين مدح الأمين فعرض بأخيه المأمون اذ قال :

لم تلده أمة تعرف في السوق التجارا

لا ولا حد ولا خان ولا في الخزي جارا

واذا نقصينا رواية هذا الحد الذي تحير فيه ابن طباطبا : هل
كان في جارية وجد معها أو في خمر ، لا نكاد نجد لها أثرا اللهم
الا ما رواه صاحب العقد الفريد اذ قال : « كان الرشيد حد
المأمون ، وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مغنية تغنيه ، فلحفت ،
فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن ، فتغير لون الجارية ، وفطن
الرشيد لذلك ، فقال ، علمتها بما صنعت ؟ قال : لا والله
يا مولاي ! قال : ولا أومات إليها ؟ قال : قد كان ذلك ، فقال :
كن منى بمرأى ومسمع ، فاذا خرج اليك أمرى فانتبه اليه . ثم أخذ
دواة وقرطاسا وكتب اليه :

يا أخـذ اللحن عـ	لى القينة عند الطرب
تريد أن تفهمها	حد لغات العرب
أقسم بالله ومها	سطر أهل الكتب
للكلب خير أدبا	من بعض أهل الأدب

إذا قرأت ما كتبت به اليك ، فأمر من يضربك عشرين مقرعة
جياذا . فدعا المأمون البوابين ثم أمرهم ببطحه وضربه فامتنعوا ،
فأقسم عليهم فامثلوا لأمره .

هذه هي رواية صاحب العقد عن قصة حد المأمون في جارية ،
وفيها دليل بالغ على أن المأمون لم يرتكب فاحشة يستحق عليها
الحد ، فهو لم يخن أباه في جاريته قط ، ولا الرشيد أوقع عليه
عقوبة الحد ، كل ما هنالك أن الرشيد غضب لأن ولده بصر

الجارية بموضع خطئها والرشيد موجود وهو أولى بذلك ، وما كان ينبغي للمأمون أن يتباصر بعمله ولا أن يدل الجارية على خطئها قبل استئذان أبيه . أما العقوبة التى أنزلها به الرشيد فهى عقوبة والد لولده يؤدبه ويشعره بذنبه ، بل أن الرشيد حين وكل الى ابنه تنفيذ العقوبة التى حددها له ، كان واثقا كل الثقة بالمأمون ، وبقدرته على معاقبة نفسه ، وتلك مهمة لا يقدر عليها الكثيرون . فشعر الرقاشى اذن انما هو من قبيل القذف الذى لا دليل عليه ، وهو يريد أن يستغل عقوبة الرشيد للمأمون فيجعلها « حدا » وشتان ما بين المعنيين ، بل أن روح القذف واضحة فى البيت الأول اذ يعرض بأم المأمون لكونها أمه ، ولكنه ينزل من قدرها حين يجعلها « تعرف التجار فى السوق » ، وهو بالتالى ينزل من قيمة الرشيد نفسه .

تلك اذن ملامح المأمون فى نشأته ، جمعنا متفرقها لنحاول أن نجعل منها صورة متكاملة ، لم يكن المأمون فتى عاديا فهو ابن الرشيد ، وكان ذكيا طموحا يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها ، فهو يهوى العربية والأدب حتى نراه شاعرا ، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين ، ويهوى الحديث حتى يؤخذ عنه ، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك ويكون له معها شأن . وهو فى محيط أسرته يحظى برعاية أبيه وحبه ، ويفتقد حنان الأم ، ويعيش وسط اخوة غير أشقاء ، ولكن فى مودة تنبع من نفسه الصافية ، التى لا نرى فيها التواء أو عقدا . وما الذى يسبب له الالتواء والعقد ، وليس فيه نقطة ضعف يخشى أن يكشفها . كان عبد الله واثقا بنفسه كل الوثوق ، يعيش حياة رضية لا أثر فيها لحرمان من أى نوع ، بل ربما كانت مسرفة فى كل شيء ، كما رأينا فى صورة العصر ، ولكنه - وتلك ناحية القوة فيه - لم يفقد توازنه النفسى على الإطلاق ، وأخذ نفسه بشيء غير قليل من الحزم حتى لا يجرى وراء المظاهر المادية التى تشغل عصره ، كان فى امكانه - وهو الشاب الفتى ابن الرشيد أغنى أغنياء العالم فى ذلك الوقت -

أن يعيش حياة المترفين الخاملة يلهو ويشرب ، ويقعد الغناء وحوله
الجواري الحسان ، ولكنه يترفع عن ذلك كله . وكأنه يضيع
حجابا بينه وبين الملهيات ليفرق في دروس النحو والمغة والأدب ،
ويغوص في أعماق الحديث والفقه والفلسفة ، ويقبل على ذلك
كله اقبال المشغوف ، بينما كان أخوه الأمين يدفع الى هذه
الدروس دفعا فلا يصل فيها الى شيء لشغله بما يخاب لب أمثاله
من الشباب . وقد يكون للرشيد فضل كبير في اهتمامه بتثقيف
أبنائه واشرافه عليهم ، وموالة سؤال أساتذتهم عنهم ، ولكن
شخصية المأمون لها الفضل الأكبر فيما بلغت في فترة تكونها ،
وسوف نرى آثار هذا الفضل فيما يلي من الفصول .

الفصل الثالث

في ضلال الرشيد

مع ان عبد الله (المأمون) قد ولد في الليلة التي بويع فيها الرشيد بالخلافة ، ثم ولد أخوه محمد (الأمين) في السنة ذاتها (١٧٠ هـ) ، إلا أن الرشيد لم يسم أحدا منهما وليا للعهد حتى عام ١٧٥ هـ ، ولعل السبب في ذلك تحرجه في الاختيار . فقد كان في قرارة نفسه يحب عبد الله ويثق في قدرته على تحمل أعباء الحكم من بعده ، ولكن زوجته زبيدة والهاشميين معها كانوا يدفعونه دفعا لتفضيل الأمين على أخيه .

وكانت الفكرة الراسخة عند هارون ألا يختار وليين للعهد يتعاقبان في الخلافة ، فهو لم ينس بعد محنته أيام أخيه الهادي ، ومحنة عيسى بن موسى أيام جده وأبيه . ويبدو أنه ظل طوال السنوات الخمس يحاول أن يجد مخرجا دون جدوى . ولم يكن التأخير في اختيار ولي العهد إلا زعزعة لحكم هارون ، وأغراء للطامعين من البيت العباسي ، لهذا لم يجد الرشيد مناصا من الاختيار .

وفي تلك الأثناء نشطت زبيدة أم محمد (الأمين) في التأثير على هارون ، وأرسلت أباها عيسى بن جعفر الى البرامكة الذين كانوا محيطين بهارون في تلك الفترة ، ولهم عليه تأثير عنيف ، فوسطهم لدى هارون . وكان الفضل بن يحيى البرمكي أشد المؤيدين لبيعة محمد لأنه كان في حجره . وهذا النظام الذي يعهد

بالأمير الى كبير في الدولة موثوق به ليووجهه ويرعاه ، ربما كان منقولاً عن الفرس ، وقد نفذ هارون فجعل محمداً في حجر الفضل ، وعبد الله في حجر جعفر بن يحيى ، والقاسم في حجر عبد الله ابن صالح - فكان من الطبيعي اذن أن يتحمس كل كفيل لأميره ، وهكذا بدأ الفضل بن يحيى جهوده ليفوز محمد دون أخيه عبد الله بولاية العهد . واستغل الفضل ولايته على خراسان لإعلان هذه البيعة - ليقطع على الرشيد ترده - ففرق أموالاً ، وأعطى الجند إعطيات متتابعة ، ثم أظهر البيعة لمحمد وسماه الأمين فبايع الناس له ، وأغرى الشعراء بمدحه وتوكيد البيعة له .

فلما تنهى خبر هذه البيعة الى الرشيد وان أهل المشرق قد بايعوا لمحمد ، انقطع ترده بتأثير بنى هاشم وزوجته ، فكتب الى الآفاق بالبيعة لمحمد ، وعقد له ولاية عهد المسلمين من بعده في بغداد ، وأخذ له بيعة القواد والجند (١) . واستخدم الشعر سلاحاً للدعاية للأمين وتوكيد ولايته للعهد .

وأراد الفضل بن يحيى - عن طريق مساهمته في اتمام هذه البيعة - أن يؤكد سلطانه ويقوى نفوذه استعداداً لما سيلقى اليه من مهام الأمور في المستقبل ، فنراه يتخذ في خراسان جنداً من الأعاجم يسميهم العباسية ويجعل ولاءهم له ، ويقول الطبرى ان عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل .

ويبدو أن الرشيد تخوف الفضل بن يحيى فعزله عن خراسان ، وأحس - في الوقت ذاته - أن عهده بولاية العهد لمحمد دون أخيه عبد الله كان ضد ارادته وأنه اضطر اليه كارها بفعل مؤثرات من حوله ، ولهذا ظل فترة طويلة مؤرقاً معذب الضمير لا يدرى ما يصنع حتى يصحح خطأ وقع فيه . وقد روى لنا الأصمعي رواية تدل على هذا القلق الذي كان يعانيه الرشيد ، كما نثبت في نهايتها الحل

(١) تاريخ الطبرى أحداث سنة ١٧٥ هـ ويروى الطبرى في أحداث سنة ١٧٦ هـ أن الرشيد عقد ولاية العهد لمحمد في سنة ١٧٣ هـ ولم يذكر هذا غيره .

الذى رآه مخرجاً له من قلقه النفسى ، قال : « بينما أنا أساير
الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ،
ويضطجع مرة ويبكى ، ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الراى لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوى خطل لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً ، ثم قال
لمروان الخادم : على بيحى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ،
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والاسلام
يجزع ، والايمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى
بعد الخوف ، وعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب
على أبى بكر ، وكان من خبره ما قد علمت وأن أبى بكر صير الأمر
الى عمر ، فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر
شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن ، حتى صارت الى غير
أهلها . وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصويره الى من أرضى
سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ،
وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه
من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ،
ومشاركة النساء والاماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الاصيل
الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فان ملت الى عبد الله أسخطت
بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ،
فأثر على فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فانك
بحمد الله مبارك الراى ، لطيف النظر . فقال : يا أمير المؤمنين ،
إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد ، فان الخطأ
فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير
هذا ، فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتحنى ، فقممت
وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زال فى مناجاة ومناظرة

طويلة ، حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

وهكذا كشف الرشيد عن ذات نفسه في تلك الليلة واستطاع أن يحلل شخصية عبد الله ومحمد بوعى ودون مواربة ، كما أبان الضغط الشديد الذى تعرض له من بنى هاشم ليقدم محمدا على أخيه في ولاية العهد ، بل يؤثره بها دونه . وفي رواية للسيوطى يذكر الرشيد تأثير أم جعفر عليه صراحة مع بنى هاشم لاتمام هذا الأمر الذى نفذه كارها . وعندما استبد به الخوف والقلق على مصالح الرعية أراد أن يمحو خطأ اختياره لمحمد وليا للعهد ، فاستطاع - بمشاركة يحيى بن خالد له فى رأى - أن يهدىء من قلقه ولكن بالوقوع فى خطأ كان يتحاشاه منذ البداية ، وهو اقرار وليين للعهد ، فى الوقت الذى يؤمن فيه بفشل هذه التجربة من قبل .

كان الرشيد منصرفا من الحج فتوجه الى الرقة ، وفيها نفذ ما اعتزمه من قبل فأعلن بيعته لابنـه عبد الله المأمون بعهد محمد الأمين ، وأخذ البيعة على الجند بذلك ، ثم أرسل المأمون الى بغداد ومعه من أهل بيته جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وعبد الملك بن صالح ، ومن القواد على بن عيسى فبوع له فى بغداد حين وصل اليها .

وبذلك صار الأمين والمأمون وليين للعهد ، وأكثر الشعراء فى مدح صنيع الرشيد ومدح المأمون ، ومن العجيب أن سلم الخاسر الذى مدح اختيار الأمين ابن زبيدة وليا للعهد . وحشت زبيدة فمه جوهرًا جائزة له عن أبياته ، هو نفسه الذى كتب يمدح اختيار المأمون ، جامعا له عديدا من الصفات الكريمة .

ولكن يبدو أن نور الهدى لم يتم باختيار المأمون بعد. الأمين لولاية العهد ، فقد طمع اخوة المأمون فى ترشيحهم أيضا ، ويبدو أن فرق السن بينهم كان ضئيلا ، فلم يجدوا حرجا فى المطالبة علنا

بترشيحهم لولاية العهد . وكان أكثر الساعين الى ذلك الابن الثالث لهارون واسمه القاسم ، ويظهر أن أمه « قصف » كانت أيرة الى قلب الرشيد ، فسعت سعيها ليكون ابنها في قائمة المرشحين للخلافة ، وأغرت الشعراء باعلان ذلك في أشعارهم التى تلقونها على مسامع الرشيد ، بل أن عبد الله بن صالح . الذى كان القاسم فى حجره - كتب الى الرشيد يطالب بالبيعة له على أساس نكتة حسابية اذ يقول :

يا أيها الملك الذى لو كان نجما كان سعدا

اعقد لقاسم بيعة واقدح له فى الملك زندا

الله فرد واحد فاجعل ولاية العهد فردا

دلم يلبث الرشيد أن استجاب لهذا الضغط ، فبايع القاسم وسماه المؤتمن ، وذلك بعد البيعة للمأمون بفترة يسيرة ، ولكنه - فيما يبدو - أصم أذنيه عن البيعة لرابع أبنائه وهو المعتصم لأنه كان منصرفا عن الثقافة والعلم حتى قيل لقد زوى الرشيد الخلافة عن ولده المعتصم لكونه أميا . ولما استقرت ولاية العهد لأبنائه الثلاثة أعلن تقسيم ملكه بينهم ، فخص الأمين بالشام والعراق ، وولى المأمون ممالك خراسان بأسرها ، وولى المؤتمن الجزيرة والثغور . ولم يكن يجاوز أكبر هؤلاء الاخوة - وهو عبد الله المأمون - الثانية عشرة من عمره وقتذاك .

وكثرت أحاديث الناس حول صنيع الرشيد ، فمنهم من باركه قائلا انه أحكم أمر الملك ، ومنهم من لعنه قائلا : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية .

ويبدو أن الرشيد كان يحس احساسا قويا بتورطه فى هذا الأمر كله ، وكان يتخيل ما سوف يحدث بين الأخوين من شقاق ، وقد عبر عن ذلك فى أكثر من مناسبة ، وكان تخوفه من جهة الأمين لا من جهة المأمون ، لوثوقه بعنف شخصية الأمين وسرعة استجابته للمؤثرات . ولهذا نرى الرشيد يحاول ايجاد نوع من الضمان

لتنفيذ ما اعتزمه من تولى الأمين ثم المأمون الخلافة ، وظن أنه عثر على هذا الضمان عندما حج في سنة ست وثمانين ومائة ، ولكنه كان واهما في ظنه ، وما ارتآه ضمنا لم يكن الا مظهرا شكليا لا غناء فيه ولا جدوى منه . لقد ذهب الرشيد الى الحج في تلك السنة ومعه وجوه بنى هاشم والقواد والفقهاء والقضاة والوزراء ، فلما قضى مناسك الحج كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين ، أحدهم الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما ، أحدهما على محمد بما اشترط عليه الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال ، وصير من الضياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط لعبد الله على محمد وعليهم . وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم . وتقدم الرشيد الى الحجبة في حفظ الشهادة بالبيعة والكتاب ومنع من أراد اخراجهما والذهاب بهما .

أما الكتاب الأول فيستفاد منه أن الرشيد أراد أن يحكم الأمر لابنه المأمون احكاما شديدا بحيث لا يستطيع الأمين أن يخل بشيء . وفي اعتقادي أن كل ما كان يتمناه الرشيد لابنه المأمون ولم يستطع أن يحققه له ، ضمنه في هذه الوثيقة ، ولكنها لم تزد على أن تكون حبرا على ورق ، بالرغم من شهادة الشهود وقرار الأمين على نفسه وحلفه في بيت الله الحرام (١) وبالرغم من تعليق الوثيقة في الكعبة - ويبدو أن الشؤم لاحقها منذ البداية فسقط عند تعليقها . ونلاحظ أن الرشيد في هذه الوثيقة يحيط المأمون بكافة الضمانات القوية التي تجعله يقف على قدميه اذا حاول الأمين

(١) يروى المسعودي أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة ، رده جعفر بن يحيى وقال له : فان غدرت بأخيك خذك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثا ، كلما يحلف له ، ولهذا السبب اضطفت أم الأمين على جعفر فكانت من بين الذين حضوا الرشيد على قتله (مروج الذهب : ٢٧٣)

ان يسلبه حقه في الخلافة ، فأعطاه ولاية خراسان وهي تعتبر مملكة واسعة مترامية الأطراف ، عظيمة الموارد ، وجعل له استقلالاً كاملاً بها في حياته وبعد مماته ، أى في خلال خلافة أخيه الأمين أيضاً ، ووفر له جو العمل على أسس ثابتة اذ حمى رجاله من العزل بيد الأمين عند وصوله الى الخلافة ، بل انه حرم الأمين من كل حقوق الخليفة ازاء منطقة خراسان التي يحكمها المأمون في استقلال تام عن الدولة .

ولم يكن اختيار الرشيد ولاية خراسان ليعهد بها للمأمون عبثاً ، بل لقد بنى هذا الاختيار على أسباب كثيرة ، منها أن الخراسانيين هم شيعة العباسيين ، وفيهم خضوع ومؤازرة لهم ، حتى ان أبا جعفر المنصور أثبت ذلك في وصيته لابنه المهدي اذ يقول له « واوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده » .

ثم ان « مراجل » أم المأمون خراسانية ، فله خُولة اذن في خراسان وعصبية تؤازره . وقد وقر في نفوس الفرس منذ زمن بعيد احترام ملوكهم الى حد التقديس والعبادة ، وفي ذلك يقول أوليري : « لقد كان من عادة الفرس في القديم أن ينظروا الى كل ملك من ملوك الساسانيين باعتباره « باغ » وذلك لقب لا يفهم منه معنى « اله » فهما تاما ، وانما يفهم على انه حلول الاله ، حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، وهكذا نسبوا للملك قوى اعجازية وعبدوه باعتباره مقام حضرة الهية . . وقد بقى الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة برغم اعتناقهم الاسلام ، فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل . وهذا يفسر لنا استماتة الخراسانيين في القتال ضد جيوش الأمين ، دفاعاً عن خليفته المأمون ، ولم تكن هذه

الأسباب جميعها بعيدة عن الرشيد عندما اختار ولاية خراسان لتكون من نصيب المأمون ، فإذا كان لم يستطع أن يحقق أمله في اختياره خليفة دون أخيه الأمين بسبب عصبية بنى هاشم والمؤثرات الأخرى من حوله ، فلا أقل من أن يجعل للمأمون كيانا يرد به غائلة الأمين إذا حدثته نفسه بنقض العهد الموثق في حرم الكعبة .

وعلى الرغم مما يؤكد هذا العهد من عدم ثقة الرشيد بابنه الأمين ، نراه يفرط في الثقة بالمأمون فيعطيه الحق في خلع القاسم من ولاية العهد ، وصرف ذلك الى من يرى من أولاده أو اخوته ، مع أنه حرم الأمين هذا الحق .

وفي مقابل العهد الذي كتبه الأمين على نفسه ، استكتب الرشيد ابنه المأمون عهدا ردد فيه ما جاء في كتاب الأمين مما يجب عليه بالنسبة للمأمون فقال : .. ان أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين فى سلطانه بعد أخى محمد ابن هارون ، وولانى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين وابتاع لى من الضياع والعقود والرباع وابتعت منه من ذلك ، وما اعطانى أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق ، وغير ذلك . ولا يعرض لى ، ولا لأحد من عمالى وكتابى بسبب محاسبة .. » .

ويستمر المأمون فى تأكيد حقه قبل الأمين بتفاصيله المثبتة فى الكتاب الأول ، فإذا استوفى تأكيد هذا الحق أوجب على نفسه « أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى ناحيتى ، ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين فى أمرى » وكان الرشيد - حتى فى هذا الكتاب - يريد أن يستوثق

للمأمون ما شرطه له ، وكأنه كان متخوفا أشد التخوف من سلوك الأمين بعد توليه الخلافة .

وهكذا أحس الرشيد ببعض الراحة بعد شخوصه بابنيه الى بيت الله « وأخذ البيعة منهما بأشد الموثيق وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع الفتهم ومودتهما . . وكتب له في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما الحجبة وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة » .

لقد فعل الرشيد ذلك كله طلبا لراحة نفسه ، وتهذئة لضميره المعذب الذي يؤمن بأن الخلافة من حق المأمون لسلامة تفكيره وحسن سيرته وقوة شخصيته ، وقدرته على العمل لصالح المسلمين ، ولكن ها هو ذا يضطر الى صرفها للأمين واضعا المأمون في موقف صعب عسير ، وقفه الرشيد نفسه قبل ذلك ، وقاسى منه الأمرين ، ولهذا أراد أن يجنب المأمون بعض مخاطر هذا الموقف باقرار الضمانات التي تحدثنا عنها من قبل ، يضاف الى ذلك ايثاره له بالمال الكثير ليمنحه القدرة الكافية على العمل المثمر ، والتأثير في الناس ، وتقوية جيشه ، واستمالة الطامعين الى جانبه . ومن بين هدايا الرشيد الى ابنه المأمون — مما يكشف عن حبه الشديد له وايثاره — خاتم الخليفة المنصور الذي كان يتيمن به الرشيد كثيرا ونقشه « الله ثقتي آمنت به » . وينبئنا الطبرى أن الرشيد بعد منصرفه من الحج ، وبعد أن وثق البيعة لابنيه أمر لعبد الله المأمون بمائة ألف دينار حملت من الرقة الى بغداد . ولم يكتف بذلك بل نراه حين شخص الى خراسان في عام ١٩٣ هـ جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه ، وأشهدهم وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون ، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون .

كل هذا الايثار من جانب الرشيد مردده شعوره بالذنب لتفضيله
الأمين على أخيه ، فهو يحاول أن يعوضه عن تأخر ولايته الخلافة ،
بما يفدق عليه من أموال ، وبمن يعطيه من الرجال ، وبما يمدد
من مصادر القوة في العدد والعدة ، ولكنه نسي أنه بهذا العمل يوغر
صدر الأمين على أخيه ، ويملؤه بالحق والكراهية ، ويشعره بأنه
خليفة عاجز لا حول له ولا نفوذ ، ما دام يرى أن أخاه المأمون يستأثر
بأهم ولايات الدولة وأكثرها غنى ، ويحوز الأموال والأسلحة الكثيرة
والجيش الذى يستطيع أن يقض مضجعه ويؤرقه .

وكانت رحلة الرشيد الى خراسان التى أشرنا اليها نهاية
المطاف له ، اذ عرضت له علة ، ما لبثت أن اشتدت عليه وهو فى
مدينة طوس ، ففضى نحيبه بعد أن ظل فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة
وشهرين وثمانية عشر يوما ، وهذه المدة - كما نعلم - هى عمر
المأمون وقت وفاة أبيه . ولم يحضر وفاة الرشيد من ابنائه غير
صالح ، أما الأمين فكان فى بغداد وقتذاك ، وكان المأمون فى مرو .
وحين سمع الأمين بعلّة أبيه أرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتباً
جعلها فى قوائم صناديق منقورة ، ألبسها جلود البقر ، وقال له :
لا يظهرون أمير المؤمنين ولا أحد ممن فى عسكره على شئ من أمرك
وما توجهت فيه ولا ما معك حتى يموت أمير المؤمنين ، فإذا مات
فادفع الى كل رجل منهم كتابه ، ونجح رسول الأمين فى مهمته
بالرغم من شك الرشيد ورجاله فيه ومحاولتهم عبثاً العثور على
ما يكون معه من رسائل . وحينما استوثق بكر من وفاة الرشيد ،
أخرج الرسائل من مخبئها السرى ووزعها على أصحابها ، وانطلق
رسول الى مرو يحمل كتاب الأمين الى أخيه المأمون وهو يقول فيه :
« اذا ورد عليك كتاب أخيك ، أعاذ الله من فقدك عند حلول ما لا مرد
له ولا مدفع مما قد أخف وتناسخ الأمم الخالية والقرون الماضية ،
بما عزاك الله به ، واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين
أفضل الدارين وأجزل الحظين ، فقبضه الله طاهراً زاكياً ، قد

شكر سعيه وغفر ذنبه أن شاء الله ، فقم في أمرك قيام ذى الحزم والعزم والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتا ، وأنا لله وأنا اليه راجعون . وخذ البيعة على من قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وأثباتها ، فانك مقلد من ذاك ما قللك الله وخليفته ، وأعلم من قبلك رأى فى صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن أنكرته عند بيعته ، أو اتهمته على طاعته ، فابعث الى برأسه مع خبره ، وإياك وأقائته ، فان النار أولى به . . واعمل بما تأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد ، فان أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشد بك عضده ، ويجمع بك أمره ، انه لطيف لما يشاء .

ولما وصلت هذه الرسالة الى المأمون - وهى تؤكد الشروط والمهود التى سبق أن أقرها الرشيد (١) ، وتكشف عن وثوق الأمين بصحة رأى أخيه وبعد نظره - كان المأمون فى طريقه من مرو الى سمرقند ، فوصلته الرسالة وهو على مسيرة فرسخ من مرو ، فعاد اليها ودخل دار الإمارة ، ثم نعى الرشيد على المنبر وشق ثوبه ونزل . وأمر للناس بمال فوزع عليهم ، وبائع لمحمد ولنفسه ، وأعطى الجند اثنى عشر شهرا . ولست أشك فى أن فجيعة المأمون

(١) فى كتاب « الامامة والسياسة » أن العلة حين اشتدت على هارون ذكر البيعة لابنه المأمون ، فلما سمعت بذلك زبيدة هجرته وتغاضت عنه ، ثم دخلت عليه فعاتبته فى ذلك اشد العاتبة ، فقال لها الرشيد : ويحك انما هى أمة محمد ورعاية من استرعانى الله مطوقا بمنقى . ثم يقول فى ختام الرواية أن الرشيد جعل الخلافة للمأمون أولا ثم الأمين ، وهذه الرواية التى ينفرد بها الكتاب اما أن تكون خطأ أو لعلها تبين أن الرشيد حاول ذلك قبل وفاته (الامامة والسياسة ٢ : ١٧٢)

في أبيه الرشيد كانت عظيمة ، فقد كان الرشيد - كما رأينا - يؤكد في كل مناسبة تقديره العميق للمأمون وحب الجارف له . لقد منحه ولاية خراسان وهو بعد صبي صغير ، فاستفاد من وجوده فيها فائدة عظيمة من الناحيتين السياسية والثقافية . أما من الناحية السياسية فقد تمكن وهو في خراسان - موطن خثولته - من رد طغيان الأمين واستيلائه على السلطة في النهاية ، وأما من الناحية الثقافية ، فقد تأثر بالهيلينة المحدثه التي كانت مرو مركزا لها ، واستفاد ثقافة فلسفية انضافت الى ثقافته العربية الأصلية .

وكان الرشيد في حياته يدرب المأمون على أصول الحكم والسياسة ، فكان يندبه لقيادة الجيوش واقمع الفتن ، كما كان ينيبه عنه في المناسبات الاجتماعية ، فيخبرنا ابن عبد ربه أن الرشيد بعث ابنه المأمون للصلاة على الكسائي وإبراهيم الموصلي والعباس بن الأحنف الذين ماتوا في وقت واحد . وكان الرشيد يدرب المأمون أيضا على مواجهة الجماهير والتأثير فيهم عن طريق الخطابة التي كان موهوبا فيها منذ صغره لجهارة صوته وحسن لهجته . ويحكى أن الرشيد طلب من أبي محمد اليزيدي مؤدب المأمون أن يعد خطبة للمأمون ليلقيها يوم الجمعة ، فأعدها له ، فلما خطب بها رقت له قلوب الناس حتى أبكاهم .

وهكذا كانت حياة المأمون في كنف الرشيد تظلمها الرعاية والمحبة ، وكانت عملا وجهدا ، وكانت فترة تكوين لشخصية المأمون وتدريب له على السياسة والحكم . وواضح أن المأمون كان يتردد بين خراسان وبغداد ، يقيم فترة من الوقت في مقر ولايته ، وفترة أخرى في مركز الخلافة قريبا من الرشيد . وواضح أيضا أن المأمون تزوج في سن مبكرة - شأن الشباب في ذلك العصر - ولعل أولى زوجاته هي أم عيسى ابنة عمه موسى الهادي ، وقد ظلت مقيمة في بغداد ومعها طفلها من المأمون الى أن سقطت بغداد في أيدي قواته ،

فانتقلت مع طفليها الى خراسان . ويذكر صاحب شذرات الذهب أن المأمون قد تزوجها في عام ١٨٨ هـ أي أنه كان يبلغ ثمانية عشرة سنة من عمره وقتذاك .

وقد كان من الممكن أن تستمر حياة المأمون وأخيه الأمين كما أراد لهما الرشيد : المأمون يتولى أمر خراسان وله بها استقلال يكاد يكون كاملا ، والأمين خليفة المسلمين ، ولكن القدر كان يوجه حياتهما توجيهها آخر ، ذلك أن قواد الرشيد وأهله تشاوروا - وهم في خراسان عقب وفاة الرشيد - في اللحاق بمحمد ، فبدأوا ينسجون خيوط الفتنة بين الأخوين ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا ندرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل الى بغداد ناكثين بوعودهم للرشيد بالبقاء الى جانب المأمون . فلما علم المأمون بذلك جمع من معه من قواد أبيه فشاورهم وأخبرهم الخبر ، فأشاروا عليه بأن يلحقهم في ألفى فارس فيردوهم ، الا أن الفضل بن سهل عارض هذا الرأي قائلا : ان فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هديا الى محمد ، ولكن الرأي أن تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث .

ونفذ المأمون مشورة الفضل ، فلما وصل رسول المأمون الى جماعة المارقين وهم في طريق عودتهم الى بغداد ، قال الفضل بن الربيع : انما أنا واحد منهم . أما عبد الرحمن بن جبلة فشدد على حامل الرسالة بالرمح فأمره على جنبه ، ثم قال : قل لصاحبك والله لو كنت حاضرا لوضعت الرمح في فيك ، ونال من المأمون .

ولما وصلت أخبار ذلك كله للمأمون ، جزع وتحسر ، وأحس أن بريق الخلافة قد أعمى أبصار فئة من الناس فضلوا وكذبوا العهود والمواثيق ، ولم يمس على وفاة الرشيد غير يوم أو بعض يوم ، ولكنه لم يلبث أن وجد حوله رجالا يقفون معه في وجه العاصفة ، وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذي هون على المأمون

خروج بعض قواده عليه قائلا : أعداء استرحت منهم . وعدد له الخارجين على الخلفاء من قبله وكيف تم القضاء عليهم . وأبان له أن موقفه أفضل من موقف الخلفاء السابقين لأنه نازل في أخواله وبيعته في أعناقهم ، ووضع الفضل يده على صدره وهو يقول للمأمون في ختام حديثه : اصبر وأنا أضمن لك الخلافة (١) .

(١) انظر حديث الفضل بن سهل في تاريخ الطبري ١٠ : ١٢٨

الفصل الرابع في طوفان السياسة

أولا: في مكر

شخصية عجيبة ارتبطت بحياة المأمون السياسية ارتباطا وثيقا منذ كان وليا للعهد في حياة أبيه الرشيد ، حتى نهاية اقامته في مرو بخراسان وهو خليفة على المسلمين واقصد بهذه الشخصية الفضل ابن سهل ، وهو فارس مجوسى الأصل ، يقال انه كان من اولاد ملوك الفرس ، وأن أباه سهلا أسلم أيام المهدي (١) ، وأن الفضل كان يعمل قهرمانا ليحيى بن خالد ، أو أنه كان يشتغل في عصر الرشيد - وهو ما يزال شابا فتيا - بالترجمة من الفارسية الى العربية ، فنقل ليحيى البرمكى كتابا لا ندرى ما هو فأعجب يحيى بحسن فهمه وجودة عباراته ، فقال له : انى أراك ذكيا وستبلغ مبلغا رفيعا ، فأسلم حتى أجد السبيل الى ادخالك في أمورنا والاحسان اليك .

ونلاحظ هنا في عبارة يحيى أن الفرس والموالى بصفة عامة كانوا يتخذون الاسلام وسيلة لاقتناص المراكز العليا في الدولة . واستجاب الفضل لرغبة يحيى قائلا : نعم أصلح الله الوزير أسلم على يديك ، فقال له يحيى : لا ، ولكن أضعك موضعا تنال به حظا من دنيانا ، ودعا سلاما مولاه وقال له : خذ بيد هذا الفتى وامض به

(١) يقول ابن طباطبا انه أسلم أيام الرشيد (الفخرى : ٣٠٤)

الى جعفر وقل له يدخل على المأمون حتى يسلم على يديه ، وكان المأمون - كما نعلم - في حجر جعفر . وتم الأمر كما أراد يحيى وكان ذلك في عام ١٩٠ هـ . وظل الفضل بن سهل منذ ذلك التاريخ ملازما للمأمون ولجعفر بن يحيى ، وكان يتلقى على جعفر أصول المهارة السياسية التي كان يحذقها ، وكان البرامكة يعلقون على الفضل بن سهل آمالا كبيرة . من ذلك ما يذكره الجهشيارى قال : ذكر أبو العلاء المذارى أنه سمع الفضل بن سهل يقول ، قال لى يحيى بن خالد : في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وأنت عندي منهم . فلما نكب البرامكة تفرغ الفضل بن سهل لخدمة المأمون ، وظل امتدادا حقيقيا للبرامكة في سخائه وكثرة أفضاله على الناس ، وفي براعته في تحريك الأمور من وراء ستار . ووصفه الجهشيارى بأنه سخي سرى نبيل النفس . ويقول غير مصدر أنه كان أخبر الناس بعلم النجامة وأكثرهم أصابة في أحكامه ، وأن سبب ميله الى المأمون أنه نظر في طالعه فرأى صعود نجمه فلزمه ، وبلغ من براعته في معرفة الطوالع أنه ترك رسالة بوقت وفاته ومكان حدوثها فقال انها ستكون بين ماء ونار ، فكان مقتله في الحمام !

وأرى أن لزوم الفضل بن سهل للمأمون واختياره جانبه لم يكن محتاجا الى رصد الطوالع والبراعة في معرفة الغيب الذي لا يعلمه الا الله ، ولكنه كان ذكيا حاذقا يعرف شخصية المأمون جيدا وما هو عليه من همة عالية ورزانة وقدرة على تصريف الأمور ومواجهة الصعاب ، كما كان يعرف شخصية الأمين وضعفها وتهالكها على الملذات ومتابعة الشهوات . ويروى أن مؤدب المأمون قال يوما للفضل : ان المأمون لجميل الراى فيك ، وانى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم ، فاغتاظ من ذلك وقال له : ألك على حقد ، الى اليك اساءة ؟ فقال المؤدب : لا والله ما قلت هذا الا محبة لك . فقال : أنقول لى انك تحصل منه ألف ألف درهم ،

والله ما صحبته لاكتسب مالا قل أو جل ، ولكن صحبته يمضى
حكم خاتمی هذا فی الشرق والغرب !

ثم لا تنسى أن الميل الطبيعي للفضل بن سهل الفارسي الأصل
ينبغي أن يكون في اتجاه المأمون لا الأمين ، ويجب أن تؤكد منذ
البداية أن الفضل بن سهل لم ينس أصله الفارسي قط ، وأنه ظل
يعمل لصالح الفرس ، واستطاع أن يفرر بالمأمون سنوات طويلة
من ناحية استخدامه لتحقيق المصالح الفارسية أولا . ولهذا اتهم
المأمون بأنه فارسي الهوى ، وأنه يقب على رأس النفوذ الفارسي
ويمثله ، في حين أن الأمين يمثل في صراعه ضد أخيه النفوذ العربي .
وبالرغم من كل الشبهات التي تحيط بالفضل بن سهل ينبغي
أن نقرر أنه يعتبر من الشخصيات التاريخية الفذة في القدرة
السياسية والاتزان الفكري وضبط النفس إلى أقصى حدودها .
لقد رأينا كيف أن الفضل عارض كل مستشاري المأمون الذين
ارادوا إعادة القواد الناكثين للعهود بالقوة ، وكان رايه في ذلك
صائبا ، فما فائدة قائد منهم لا يحمل للمأمون تقديرا ولا حبا .
ورأينا كيف ثبت الفضل المأمون في موقفه وقال له اصبر وأنا أضمن
لك الخلافة ، ثقة بالنفس لا حد لها واعتداد من الفضل بقدرته
ومواهبه ، ولكنه لم يكن مجرد قوال لا يدري من أمره شيئا ،
بل استطاع أن ينفذ ما وعد به المأمون فجعل الخلافة تنفذ له بعد
صراع مرير وكفاح دائب .

لقد ولي الأمين الخلافة وليس في خاطره أن ينكث بوعده ، كل
ما في نفسه أن ينصرف إلى حياة عامرة بالم لذات والبهجة ، حتى
انه أمر - بعد بيعته بيوم واحد - ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر
في بغداد يخصص للصوالة . وكان ينعم بحب جاريته « نظم »
التي تزوجها وأنجب منها ابنه موسى ، كما كان مشغولا بحبه الجديد
للجارية « بذل » التي كانت لجعفر بن موسى الهادي فرأها الأمين
وهام بها حبا حتى استطاع أن يشتريها بعشرين ألف ألف درهم
كما يقول صاحب العقد الفريد وان كنت أشك في صحة هذا الرقم

لضخامته ، ولم يكن يشغل بال الأمين صراع من أجل السلطان ، بل كان مشغولا بلهوه ، منهمكا في الملذات — كما يقول كثير من المؤرخين ، حتى حين يلقي وزيره الفضل بن الربيع الذى أثر أن ينكت بوعدة للمأمون ، ليبقى بجانب الأمين ايثارا منه لعاجل فائدة ، لم يكن لقاء الأمين مع وزيره جدا كله ، بل لعل معظم تلاقيهما كان للعب الترد ، ويقال انهما لعبا يوما فتراهما فى خاتميهما ، فقلب الأمين فأخذ الخاتم وأرسل فى الحال وأحضر صائغا ، وكان مكتوبا على الخاتم « الفضل بن الربيع » ، فقال الأمين للصائغ : اكتب تحته « ينكح » ، فتنقش الصائغ ذلك فى الحال . ثم أعاد الخاتم الى الفضل وهو لا يعلم ما نقش عليه ، ومضت على ذلك ايام ، دخل بعدها الفضل على الأمين فسأله : ما على خاتمك مكتوب ؟ قال : اسمى واسم أبى ، فتناوله الأمين ثم قال له : ما هذا المكتوب تحت اسمك ؟ فلما قرأه الفضل فهم ما فعله به الأمين ، فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، هذا والله هو الخذلان المبين ، أنا وزيرك ولى اليوم كذا وكذا يوما أختم الكتب بهذا الى الأطراف وهو على هذه الصفة ، هذا والله آخر الدولة ودمارها ! وهذه القصة — على غرابتها — ليست منكورة على الاطلاق لمن يعرف أخلاق الأمين وتشاغله بالبطالة واللهو عن كل أمور الدولة وما يمس كرامتها وسمعتها .

وكان من الممكن أن تمضى به الأمور على هذا المنوال دون أن يدخل مسالك السياسة الضيقة ودروبها المعقدة ، ودون أن يشغل نفسه بالحرب وأهوالها ، ولكن قبض الله له وزيره الفضل بن الربيع — وقد راينا قصر نظره فى الميل الى جانب الأمين دون المأمون — وكأنما خشى على نفسه غضب المأمون اذا صار الى الخلافة يوما (١) ،

(١) كشف المأمون عن بغض الفضل بن الربيع له منذ أيام أبيه الرشيد فقال : « كان فى أيام الرشيد وحاله حالى يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشئان ، وكان له عندى كالى لى عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفا من =

فسمى - كما يقول الطبرى - « في اغراء محمد به وحشه على خلعه
وصرف ولاية العهد من بعده الى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من
رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه فيما ذكر عنه الوفاء لأخويه . .
فلم يزل الفضل به يصغر في عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه حتى
قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أخويك فان
البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وانما أدخلنا فيها بعدك واحدا بعد
واحد ، وأدخل في ذلك من رآه معه : على بن عيسى بن ماهان ،
والسندی بن شاهك ، وغيرهما ممن بحضرته ، فأزال محمدا عن
رأيه » .

ونحن نعلم مدى انقياد الأمين لآراء غيره ، فلم يلبث الا شهورا
منذ بداية خلافته حتى عزل أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه
هارون ولاة من عمل بالشام وقنسرین والعواصم والشفور ، وولى
مكانه خزيمه بن خازم ، ثم أمر بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالامرة
بعد الدعاء له وللمأمون وللقاسم . وكانت هذه خطوة لها ما بعدها ،
وقد استطاع المأمون أن يدرك أن الأمين يدبر خلعه فقطع البريد
عنه وأسقط اسمه من الطرز ، حتى يؤكد له تنبهه الى ما يراد به
واستعدادده للمقاومة . ولم يلبث بعض قواد الأمين - الذين أحسوا
ضعفه وانقياده - أن تركوه ولحقوا بالمأمون في خراسان ، وكان أهم
هؤلاء القواد رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وهرثمة بن أيمن
الذى ولاة المأمون قيادة حرسه . عندئذ بدأت الأمور تتحرج بين
الأخوين ، وأحس كل منهما تأهب الآخر له بعد أن أظهر كلاهما المودة
إصاحبه من قبل ، فكانت رسالة الأمين الأولى مؤكدة للمواثيق
والعهود ، أما المأمون فقد تواترت رسائله الى أخيه الأمين بالتعظيم ،
كما تواترت هداياه اليه من طرف خراسان من المتاع والأنيسة
والمسك والدواب والسلح .

= سعيته وحذرا من اكاذيبه ، فكنيت اذا سلمت عليه فرد على أظلم لذلك فرحا ،
وبه مبتهجا ، وكان صفوه الى المخلوع (كتاب بغداد : ١٥)

ولم يلبث الأمين أن اقتنع بوجوب عزل أخويه من ولاية العهد ، فبعث الى المأمون ثلاثة رسل هم العباس بن موسى بن عيسى ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيلة ليلغوه وتقديم موسى بن الأمين الذى سمي « الناطق بالحق » على نفسه ، فأبى المأمون ذلك ، وأراد أحدهم وهو العباس بن موسى أن يهون الأمر عليه قائلا : وما عليك أيها الأمير من ذلك ، فهذا جدى عيسى ابن موسى قد خلع فما ضره ذلك ! عندئذ صاح الفضل بن سهل بالعباس قائلا : اسكت فان جدك كان فى أيديهم أسيرا ، وهذا بين أحواله وشيعته . وأعجب الفضل بذكاء العباس فأراد أن يستميله الى جانب المأمون فخلا به وقال له : يذهب عليك فى فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من المأمون ؟ ومناه بولاية الموسم وبعض مواضع الأعمال بمصر ، ولم يتركه حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة فكان العباس بن موسى بعد ذلك عينا على الأمين يبعث بأخباره الى المأمون .

وبإشارة من الفضل فيما يظهر أطلق على المأمون اسم الامام تمهيدا لاعلان خلافته ، ولما استنكر أخوه الأمين هذه التسمية ، وأثار موضوعها أحد رسله ، أجاب الفضل بن سهل فى خبث : قد يكون امام المسجد والقبيلة ، فان وفيتم ام يضركم ، وان غدرتم فهو ذاك .

وبإزاء هذا الجهد الضخم الذى كان يبذله الفضل بن سهل لتحقيق النصر السياسى للمأمون ، كان الفضل بن الربيع يقود المعركة فى الجانب الآخر : جانب الأمين ، فنهى عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على المنابر ، وأعلن المبايعة لموسى بن الأمين وولاه العراق ، وأرسل الى مكة ليأخذ المواثيق التى وضعها الرشيد فى الكعبة ، ونجح فى الحصول عليها من الحجة فمزقها الأمين .

وأخذ كل جانب من الفريقين يعجم عود الآخر ، فالأمين يطلب الى المأمون أن يتنازل له عن بعض الكور الداخلة فى نطاق ولايته ، والمأمون يأبى ذلك استنادا الى ما هو مثبت فى العهود والمواثيق ،

والى وجوده وسط عدو مخوف الشوكة وأجناد لا تطيع الا بالأموال .
ثم يأمر المأمون بوضع حراسة مشددة على حدود خراسان ،
فلا يجوز رسول من العراق الا مع ثقات من رجاله ، لا يدعونه
يستعلم خبرا أو يؤثر اثرا . وبذلك استطاع أن يحمي أهمل
خراسان من أن يستمالوا برغبة أو تودع صدورهم رهبة . وكل ذلك
كان بتدبير الفضل بن سهل الذي وكل اليه المأمون قيادة المعركة
السياسية . ورد الأمين على رفض المأمون التنازل له عن كور
الجبال ردا عنيفا ، فلم يملك المأمون الا أن يجيبه برسالة يقول
في ختامها : « فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذنن بطاعتك ،
ولا على قطيعتك وأنا على ايثار ما تحب من صلتك ، وارض مما حكم
به الحق في أمرك ، أكن بالمكان الذي أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك
والسلام » ووقعت هذه الرسالة وقع الصاعقة على الأمين فرد
على أخيه ردا عنيفا يخوفه من تعرضه « لنار لا قبل له بها » .
وانتابت المأمون الهواجس خوفا على زوجه وولديه الذين خلفهم
في بغداد ، وخوفا على ماله الذى تركه له الرشيد (١) .

فكتب الى الأمين يستأذنه في حمل أهله وماله اليه ، فلم يأذن
له . ومع ذلك ظل المأمون ثابتا في موقفه ازاء هذا الجو المتوتر
الملىء بالاحتمالات ، وكان الفضل بن سهل ينصحه بالألا يكون
« المستفتح باب الفرقة » حتى لا يفقد عطف العامة عليه ، والعامة
دائما مع المظلوم المفترى عليه ، في الوقت الذى كان الأمين فيه
يستشير الناس في خلع أخيه ، ويرى أن ولايته للعهد كانت « فلتة
شبهها على الرشيد جعفر بن يحيى بسحره » .

والحقيقة ان الخلاف بين الأخوين منذ بدايته كان يتحول الى
صالح المأمون بحكم شخصيته القوية الثابتة ، البعيدة عن التهاك

(١) ذكرنا أن الرشيد بعث الى المأمون في بغداد مائة ألف دينار ، ولكن
جاء على لسان المأمون في رواية للطبرى أن الرشيد منحه مائة ألف ألف ، ولعلها
دراهم وليست دنائير (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٤)

على الملذات والشهوات ، وبحكم مستشاريه الناصحين وعلى رأسهم الفضل بن سهل بسعة أفقه وحسن تدبيره ، وبحكم السياسة الرشيدة التى سار عليها المأمون فى خراسان فاستطاع استمالة الجنود وعامة الناس بحيث لا ينحازون الى غيره ، حتى ان الفضل ابن الربيع حين سأل أحد الخبراء عن امكان اثارة أهل خراسان وجندها ضد المأمون ، قال له : أجناد عبد الله قوم على بصيرة من أمرهم لتقدم سعيهم وما يتعاهدون من خطبهم ، وأما العسامة فهم قوم كانوا فى بلوى عظيمة من تحيف ، ولأنهم فى أموالهم ثم فى انفسهم صاروا به الى الأمنية من المال والرفاهية فى المعيشة ، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم ، ويتذكرون بلية لا يأمنون العودة اليها » . يضاف الى ذلك أن شعور عامة الناس كان مع المأمون لاحساسهم بأن الأمين قد ظلمه وحرمه من حق كان قد شهد عليه فى الكعبة .

ونرى فى الجانب الآخر ضعف شخصية الأمين وتهالكه على مغريات الحياة وتشاغله بالبطالة واللهو وتبديده الأموال فيما لا يجدى ، ثم ان من حوله من المستشارين الذين اصطنعهم كانوا ممن نبذهم أبوه الرشيد وأقصاهم لسوء سيرتهم ، فاذا لجأ الأمين الى ناصح يخلص له مثل يحيى بن سليم أبى أن يتبعه واتهمه بالخديعة . أما رأى يحيى فيقول فيه « اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه (أى المأمون) فلا تجاهره مجاهرة فيستنكرها الناس وتستشنعها العامة ولكن تستدعى الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد وتؤنسه بالالطاف والهدايا وتفرق ثقافته ومن معه وترغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا أوهنت قوته واستفرغت رجاله أمرته بالقدوم عليك ، فان قدم صار الى الذى تريد منه ، وان أبى كنت قد تناولته وقد كل حده ، وهيض جناحه ، وضعف ركنه ، وانقطع عزه » .

ومع هذا كله كان المأمون يتهيب الموقف فى حالات ضعف تنتابه ، وكان يهم أن يسلم نفسه للأمين حتى لا يقع بينهما ما لا بد

أن يقع من صدام وحرب ، وكان الفضل بن سهل يثبته في مكانه المرة بعد المرة ويطلبه بالتمسك بموضعه ، فيجيب المأمون في غمرة اليأس : « وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد وعظم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه ، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وانما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها ، لا ينظرون اذا وجدوها حفظ بيعة ، ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة » . ويشير الفضل الأمل في نفس أميره ، ويستحث كرامته ونخوته فيقول : « أنا لغدر محمد متخوف ، ومن شرهه الى ما في يديك مشفق ، ولأن تكون في جندك وعزك ، مقيما بين ظهرائي أهل ولايتك أخرى ، فان دهمك منه أمر جردت له وناجزته وكايدته ، فاما أعطاك الله الظفر عليه بوفائك ونيتك ، أو كانت الأخرى فمت محافظا مكرما ، غير ملق بيديك ، ولا ممكن عدوك من الاحتكام في نفسك ودمك » . ولا تظهر براعة الفضل بن سهل وثباته وحسن سياسته وتدبيره في هذا الموقف فحسب ، بل تبدو أيضا حين تخوف المأمون شر أخيه ، وشر ملوك العجم المحيطين به في خراسان ، والذين استثارهم الأمين في الغالب ضد أخيه ، فتحفروا للقضاء على المأمون ، وهم جيفوية ، وخاقان صاحب التبت ، وملك كابل ، وملك أترار بنده ، مما جعل المأمون يفكر في الهروب من هذا الموقف العسير كله ، ليلجأ الى ملك الترك ، ولكن الفضل شد من أزره ، وأشار عليه بمنح جيفوية وخاقان استقلالهما الذاتي ، وارسال هدايا الى ملك كابل لاسترضائه ، والتنازل عن الجزية لملك أترار بنده .

وكان لابد أن يحدث الصدام المسلح بعد معركة التحدي السياسي من الجانبين في صورة الرسائل المتبادلة بينهما ، وبعد أن أعلن الأمين خلع أخيه وبايع لابنيه موسى وسماه الناطق بالحق ، وعبد الله وسماه القائم بالحق . وبدأ الأمين هذا الصدام باعداد جيش قوى يتكون من أربعين ألف مقاتل ، جعل قيادته لعلي بن موسى بن ماهان ، وبدأ الجيش مسيره في جمادى الآخرة (وقيل

شعبان) عام ١٩٥ هـ ، وقائده مزهو بنفسه وبجيشه ، واثق من نجاحه في مهمته ، حتى لقد أخذ معه قيدا من فضة ليليق بمعصم المأمون حين يأتي به أسيرا . وبعث المأمون جيشا متواضعا يبلغ تعدادة أقل من أربعة آلاف يتكون معظمه من الأتراك والفرس ، وجعل على رأسه طاهر بن الحسين أكبر قواده ، وكان ذا شهرة واسعة في فنون القتال .

وكان على بن عيسى يستعلم في الطريق أخبار طاهر وهو يسخر منه ويقول : « وما طاهر ؟ فوالله ما هو الا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من ناري ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب » . واستطاع طاهر بن الحسين أن يحدد موقع المعركة لتكون ملائمة لظروف قواته القليلة العدد ، فجعل الرى وراءه ليتحصن بها ويقاثل في سككها اذا هزم ، وقبل أن يبدأ القتال ذكر طاهر على بن عيسى ببيعته للمأمون ، ثم جمع سبعمائة رجل ممن يثق بهم ، وهجم على قلب قوات على بن عيسى في ضربة مفاجئة ، واستطاع بهذه الحركة أن ينال رأس على بن عيسى ، فغلب اليأس في نفوس جنده ، واستطاع طاهر أن يستبيح عسكره ، وهجم جنوده فوجدوا صناديق حسبوها مالا ، فلما كسروها فاذا فيها خمر سوادى !

وكان هذا الانتصار مفاجأة كبرى للفريقين المتنازعين . أما الأمين فلم يدر بخلده قط أن جيشه الضخم يمكن أن تدور عليه هزيمة منكرة ، وأن أعظم قواده وأولهم اجابة له في خلع المأمون يقتل في أول لقاء . وأما المأمون فكان يستهول جيش الأمين وقوة عدته ، ويتخوف على بن عيسى لمكانته وصحبته الطويلة لأهل خراسان ، ولهذا نراه قبل بدء القتال يبعث اليه رسالة مطولة يذكره فيها البيعة التي في عنقه ، وكأنه يستعطفه الا يقود جيشا ضده . ولم يدر المأمون أن على بن عيسى سوف يقتله غروره بنفسه ، وزهوه بقوته ، واستهائته بعدوه ، حتى نسي أبسط قواعد القتال من بث الطلائع وجمع الأخبار . وأرسل طاهر الى الفضل بن سهل

وزير المأمون يشره بالظفر قائلا : « أطل الله بقاءك وكبت أعدائك ، وجعل من يشنالك قداك . كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجرى ، وخاتمه فى يدى ، والحمد لله رب العالمين » .

وعقب هذا النصر العظيم لم يجد المأمون بدا من خلع أخيه الأمين وإعلان نفسه خليفة على المسلمين ، فقد استعلن الشر ، ولابد من خوض المعركة الى نهايتها . وتغنى شعراء المأمون بهذا الانتصار الذى كان تمهيدا قويا للخلافة .

أما فى الجانب الآخر : جانب الأمين فقد كانت الضربة شديدة عليه فلم يدر ما يصنع الا أن يمعن فى تحديه للمأمون فصادر أمواله وضياعه وغلاته ، وضمها الى نفسه ، وأرسل الى زوجته أم عيسى المقيمة فى بغداد فطلب ما عندها من جوهر ، فلما امتنعت هجم على منزلها وانتهب كل ما فيه وأخذ كل ما لديها من جوهر . ثم سارع بإرسال جيش آخر يبلغ عشرين ألفا بقيادة عبد الرحمن الأبنائى ، لم يكن حظه خيرا من حظ سابقه ، وقتل عبد الرحمن أيضا بعد أن أبى الفرار وظل يقاتل فى شجاعة وبطولة ، ويحمس جنوده العرب مشيرا الى أعدائه قائلا : « أنهم لعجم وليسوا بأصحاب مطولة ولا صبر » .

وقبل أن يصل جيش عبد الرحمن ويقتتل مع طاهر ، كان طاهر قد فرغ لتوه من جيش آخر للأمين ، كان عبارة عن فلول جيش على بن عيسى جمعها ابنه يحيى بعد انقضاء المعركة وحاول أن يصنع شيئا الا أن طاهرا حصره فى همدان واضطره الى طلب الأمان .

وكان يحدث ذلك كله والأمين لا يغير شيئا من أسلوب حياته ، وكأنه لم يكن يرى فى هذه الحرب التى يخوضها معركة مصير ، بل مناوشة سرعان ما ينتهى أمرها ، تحتاج الى مال من السهل تدبيره ، والى رجال يسوقهم للموت وما أكثرهم ، أما هو فيتشاغل بعبثته « ينام نوم الظربان لا يفكر فى زوال نعمة ، ولا يروى فى امضاء

رأى ولا مكيدة ، قد ألهته كأسه وشغله قدحه ، فهو يجرى في لهوه والأيام تضرع في هلاكه » (١) .

بل يروى الطبرى أن الأمين لما جاءه نعى على بن عيسى ، كان على الشط يصيد السمك ، فقال للذى أخبره : ويليك دعنى فان كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئًا بعد .

وقد شجع انتصار جيوش المأمون جند أخيه على القيام بثورة ضده ، ولكنه استطاع تهدئتهم بتفريق الأموال فيهم ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الشعراء من السخرية به وبمجنونه وشذوذه ، وبولى عهده ووزيره ومستشاريه .

وأحسن المأمون بعد انتصاره الثالث على جيوش الأمين استقراراً وأمنًا بفضل سياسة وزيره الداهية ، بل لقد أحسن هذا الاستقرار والأمن منذ انتصار طاهر على جيش على بن عيسى الذى كان يمثل معظم قوة الأمين العسكرية ، ولهذا نراه يدخل المسجد في مرو فيصعد المنبر ويحمد الله ويشنى عليه ويصلى على رسوله ، ثم يخاطب الناس في شبه عهد مؤكد وميثاق يستهل به خلافته ، ويشرح فيه أسس سياسته فيقول : « أيها الناس انى جعلت الله على نفسى أن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمداً لا تحله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضائى الا ما كان فى الله له ، جعلت ذلك كله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، انى أفى رغبة فى زيادته اياى فى نعمى ، ورهبة من مسألته اياى عن حقه وخلقه ، فان غيرت أو بدلت كنت للعب مستأهلاً ، وللنكال متعرضاً ، وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب اليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته .

وشعر المأمون أنه مدين بهذا النصر العظيم للفضل بن سهل

(١) هذا ما وصفه به وزيره الفضل بن الربيع (الطبرى ١٠ : ١٥٧) والظربان دويبة يبدو انها تنام كثيراً .

فأراد مكافأته فعمد له على الشرق من جبل همدان الى جبل سقينان والتبت طولاً ، ومن بحر فارس والهند الى بحر الديلم وجرجان عرضاً ، وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعمد له لواء على سنان ذى شعبتين ، واعطاه علماً وسماء ذا الرئاستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير . ويبدو أن المأمون لم يكتف بذلك فقد كان يحس أنه مغمور بمعروف الفضل بن سهل وبعد نظره ، فكتب له كتاباً سماه « كتاب الشرط والحباء » يصف فيه طاعته ونصيحته وعظته وعنايته ، وذهابه بنفسه عن الدنيا ، وارتفاعه عما بذل من الأموال والقطائع والجواهر والعقد ، ويشترط له على نفسه كلما يسأل ويطلب لا يدفعه ولا يمنعه ، ووقع فيه المأمون بخطه وأشهد على نفسه .

والمأمون بتسليمه الفضل كل السلطات معذور أشد العذر ، فالفضل شخصية قوية طاغية ، ولولاه لأسلم المأمون نفسه للأمين ، فهو جدير بالثقة من ناحية ولأنه للمأمون ، كما أنه جدير بالثقة من نواح أخرى ، فقد كان نزيهاً عن أموال الرعية كما وصفه المأمون بحق ، وحينما قتل لم يوجد له مال ولا ضيعة ولا فرس ولا آنية يعتد بها ، وكل ما وجد في ميراثه خمسة أعبد وفرس وبرذون . وكان الفضل يحس أنه غنى بجاهه ونفوذه ، فقد قال له أحد جلسائه يوماً : « أيها الأمير لو أمرت أن يتخذ لك ضياع وعقد ، فقال : ولم ويحك ؟ أن دام ما أنا فيه فالدنيا كلها صنيعتي وعقدي . يضاف الى ذلك أنه لم يكن رجلاً تتحكم فيه الشهوة أو تأسره اللذة ، فهو لم يبح لنفسه النبيذ الذي أباحه العراقيون بصفة عامة استناداً الى تفسير لأبي حنيفة ، بل كان يحرمه ويحظر شربه ويأمر بعقوبة شاربيه . وإذا صح ما روى من أن المأمون جهد بالفضل أن يزوجه بعض بناته فأبى ، لكان في ذلك دلالة على قوته النفسية وعدم انسياقه وراء العواطف أو المظاهر . »

وظل الفضل في مرو يقود المعركة السياسية ضد الأمين ، بينما قائد المأمون العظيم طاهر بن الحسين يكتسح المدن والكور التي

تخلفها وراءها جيوش الأمين المنكسرة . ولم يكن جهد طاهر في إقامة دولة المأمون أقل من جهد الفضل ، فقد تحمل عبء القيادة العسكرية منذ البداية ، في الوقت الذي جبن فيه معظم قواد المأمون عن تحملها . وطاهر كالفضل من أصل فارسي ، فقد ذكر المسعودي نسبه فقال : طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق ابن حمزة الرستمي من ولد رستم بن دستان الشديد وهم موالى خزاعة في الاسلام ، واليهم ينتمون . ويقول محمد الخضرى ان جد طاهر كان مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلاحات الخزاعى والى سجستان ، ويغلب على الظن أنه مولى اسلام ، أسلم على يده فانتسب الى قبيلته ، ولذلك كان يقال له الخزاعى . وبعد أن انتصر طاهر على جيوش الأمين في ثلاث مواقع ، برغم ضخامتها ووفرة عدتها ، زادت ثقته بنفسه ، فانطلق يحوز المدن ويضمها الى ملك المأمون ، ولكن الأمين لم يكن قد ألقى سلاحه بعد ، لقد بعث الى أسد بن يزيد بن مزيد ليقود جيشاً جديداً ضد المأمون ، فاشترط أسد شروطاً قاسية بالنسبة لاختيار الجند وما يقدم لهم من عطاء جزيل يوازى عطاء سنتين ، كما طلب ألا يحاسب عما يفتتحه من المدن والكور . ووافق الأمين مرغماً على هذه الشروط جميعاً ، إلا أنه حمى غضبا حين طلب أسد أن يدفع اليه ابنا المأمون ليكونا أسيرين في يده حتى يعطى أبوهما الطاعة ، فان أبى ينفذ فيهما أمره . وصاح الأمين بأسد بن يزيد - وهذا موقف يحمد له : « أنت اعرابى مجنون ، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم ، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان ، وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك وتدعونى الى قتل ولدى وسفك دماء أهل بيتى ، ان هذا للخرق والتخطيئ » . وهذا الموقف النبيل الذى وقفه الأمين يتفق مع ما طلبه الى على بن عيسى - حين كان واثقا بالنصر - ألا يؤذى أخاه المأمون ، وأن يأتى به أسيراً . وبدلاً من أن يبعث الأمين بأسد بن يزيد قائداًلقى به في

السجن ، واختار أخاه أحمد بن يزيد لقيادة الجيش الجديد الذى تألف من عشرين ألف رجل من الأعراب ، كما عززه بجيش من الأبناء فى مثل هذا العدد يقوده عبد الله بن حميد بن قحطبة . وزحف الجيشان الى طاهر ، فاستعظم قوتهما ، ولكنه لم يلبث أن استخدم الأساليب السياسية فى تبديد شمل هذه القوة ، فدرس الجواسيس يبشرون الأراجيف أن الأمين قد أنقص عطاءهم ، حتى وقع الخلاف فى صفوف جيش الأمين ، وقاتل الجند بعضهم بعضا ، ورجعوا دون أن يقاتلوا طاهرا .

وكان لابد للأمين أن يرسل جيشا آخر بعد أن عظم أمر طاهر وعظم أمر سيده المأمون فأشار عليه عبد الملك بن صالح - وكان واليا على الشام فى عهد الرشيد - بأن يعد جيشا من أبناء الشام هذه المرة ، لأن جند العراق خوفتهم الهزائم المتلاحقة ، وأضعفتهم الحرب وامتلات قلوبهم هيبة لعدوهم . فاستجاب الأمين لرأيه ، وولاه الشام والجزيرة ، واستحثه على الخروج للملاقاة جند المأمون ، ولم يقدر لهذا الجيش أن يخرج من الشام ، إذ نشبت بين جنوده معارك قبلية ، فقتل بعضهم بعضا ، وما لبث أن توفى عبد الملك ابن صالح نفسه . والى هنا كان الضيق قد بلغ مداه بأهل العراق عامة ، وأهل بغداد بصفة خاصة ، فدبروا انقلابا للإطاحة بخلافة الأمين ، واستطاعوا القبض عليه وسجنه ، وأخذوا عليه البيعة لأخيه المأمون . ومن العجيب أن مدبر هذا الانقلاب الذى أراد أن يصرف الخلافة الى المأمون هو الحسين ابن أول قائد لجيوش الأمين ضد المأمون على بن عيسى الذى قتل فى المعركة . ولم يستمر نجاح هذا الانقلاب أكثر من يومين ، استطاع بعدهما أنصار الأمين فك أسره واخمد الفتنة .

وفى غمرة هذا الاضطراب الذى كان يسود بغداد عاصمة خلافة الأمين ، كان طاهر يمضى فى طريقه من حلوان الى الأهواز ، فيستولى عليها ، وينفذ عماله فى كورها ، ويولى على اليمامة والبحرين وعمان عمالا من قبله . ثم يتوجه الى مدينة واسط ، وعمال الأمين يهربون

من وجهه . بل ان أحدهم لا يجد عارا في ذلك فهو يقول لتابعه :
« قرب فرس الهرب فانه طاهر ، ولا عار علينا في الهرب منه » .
وأرسل طاهر أحد قواده فاستولى على الكوفة ، وسرعان
ما جاءه كتاب من عامل الأمين على البصرة يقر فيه بخلع الأمين ،
وكذلك فعل عامل الموصل ، وتبعهما بعد ذلك عامل الأمين على
مكة والمدينة . وحين أقبل موسم الحج دعى للمأمون بالخلافة
فيه لأول مرة بدلا من الأمين ، وكان يتولى الموسم العباس بن موسى
ابن عيسى من قبل المأمون .

وعندما اقترب طاهر من بغداد انشق عليه عدد كبير من جنوده
يبلغ نحو خمسة آلاف ، ملوا عنف المعارك وطمعوا في صلات
الأمين وعطاياه ، ويبدو أن رجال الأمين استطاعوا استمالتهم
من هذه الناحية ، فسر الأمين بانضمامهم اليه بعد أن سقطت أجزاء
الدولة في أيدي رجال المأمون ، وأصبح الأمين محصورا في مدينة
بغداد فحسب ، ولهذا فرق في هؤلاء المارقين عن جيش طاهر أموالا
عظيمة ، وقود رجالا منهم وغلف لحاهم بالفالية ، بينما لم يعط
قواده شيئا . واستطاع جواسيس طاهر أن ينقلوا اليه ذلك الخبر ،
فراسلهم ووعدهم ، واستمالهم وأغرى اصاغرهم بأكابره ، فشغبوا
على محمد ، ولحق كثير منهم بطاهر . ولم يفلح « قواد الفالية »
كما سماهم أهل بغداد ، في قمع ثورتهم واضطرابهم ففسد الأمن
وخرج أهل السجون ، وسادت الفوضى . وأصبح لا أمل لأهل
بغداد الا دخول طاهر اليهم ، ليستتب الأمن والنظام في مدينتهم .
ولم يحس الشعب وحده وطأة هذا الخلاف ، بل أحسه الأمراء
العباسيون أنفسهم ، وقد ظلوا محايدين لا ينحازون الى فريق دون
الآخر ، فلما امتد النزاع واستمر أكثر من عامين ، لم يجدوا بدا
من اتخاذ جانب ، فمال معظمهم الى المأمون ، فلحق به أخوه القاسم
ومنصور بن المهدي سنة سبع وتسعين ومائة . وفي السنة ذاتها تم
لطاهر بمعونة القائد العربي العظيم هرثمة بن أيمن حصار بغداد .
وضاق الخناق على الأمين فانفق كل ما لديه من مال ، ثم اضطر

أن يبيع ما في خزائنه من أمتعة ، كما أخرج آنية الذهب والفضة وضربها دنائير ودراهم لينفق منها على حربه اليائسة .
وانا لنستشعر يأس الأمين القاتل وندمه الشديد على كل ما بدر منه في آخر خطبة له قبل مقتله بأيام ، وقد نفت فيها كل ما كان يعتمل في صدره من ضيق ، ولم يتحرج في كشف غفلته وسوء تقديره وانقياده لوزير الفضل بن الربيع .

وبذل الفريقان جهدهما في تقريب يوم الانتصار ، ولم يبالي بأرواح الناس وأرزاقهم ودورهم في بغداد ، فعم القتل والتخريب والدمار ، وعاث الأوباش والرعاع واللصوص ، وكان البغدادى الذى يجد سبيلا للهجرة هو السعيد في تلك الأيام . واضطر الأمين الى اصطناع السفلة والأوباش ، فكان الناس اذا تخلصوا من أيديهم ووصلوا الى جانب طاهر ، ذهب عنهم الروع وأمنوا وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع وبز . وما ذاك الا لأن جيش طاهر نظامى ، وكانت أوامره صريحة بحفظ الضعفاء والنساء ، أما جيش الأمين فكان فلولا مبشرة يدخل فيها كل طامع أثيم . بل نجدا الأمين بعد انتصار قواته على جيش طاهر لأول مرة في وقعة قصر صالح ، يقبل على اللهو والشراب ، ويكل أمره كله الى محمد بن عيسى بن نهيك والى الهرش ، وهم اللصوص والفساق الذين كانوا يسلبون ما يقدرون عليه من الناس . ولكن هؤلاء السفلة الأوباش ظهر فيهم شجعان ومقاتلون خطرون ، استهان بهم أحد فرسان جيش طاهر حين رآهم عرايا لا سلاح معهم ولا عدة ، ولا جنة تقيهم ، فأوتر قوسه وتقدم فأبصره بعضهم وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة ، وفي يده بارية مقيرة (١) ، فجعل الخراسانى كلما رمى بسهم استتر منه الرجل ، فوقع في باريته أو قريبا منه ، فبأخذه فيجعله في موضع من باريته وهو يصيح : دائق أى ثمن النشابة دائق قد أحرزه ، ولم تزل تلك حال الخراسانى حتى أنفذ سهامه ، ثم حمل

(١) البارية : حصر .

على الرجل ليضربه بسيفه ، فأخرج من مخلاته حجرا فجعله في مقلع ورماه فما أخطأ به عين الفارس ، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا هروبه من وجهه .

وبذل طاهر ما بوسعه لانهاء الحرب ، فهدم الدور وحرقها ، ومنع الزاد عن المدينة ، وضيق عليها أشد الضيق ، وكانت له في كل يوم معركة حامية مع إقوات الأمين . وقد صور لنا شعراء الشعب في تلك الفترة - وخاصة عمرو بن عبد الملك الوراق - كل هذه الوقائع في شعرهم بحيث يمكن أن تكون لوحات فنية معبرة عن يوميات الحرب منسوبة الى أماكنها أو الى أيامها : وقعة درب الحجارة ، وقعة الكناسة ، وقعة باب الشماسية ، وقعة يوم الأحد ، وقعة يوم الاثنين وهكذا .

وبعد أشهر طويلة من القتال العنيف الذي لا يعرف هوادة ولا رحمة ، وبعد أن تفرق عن الأمين معظم قواده وجنده ، حتى صاحب شرطته ، استقر رأيه على الفرار من المدينة ، من ناحية هرثمة بن أيمن القائد العربي ، وخاف أن يخرج من ناحية طاهر حتى لا يقع في يده ، ولكن طاهرا كمن له حتى صار في حراقتة ، فرماها جنده بالسهم والحجارة ففرقت ، وسبح الأمين حتى وصل الى الشاطيء ، فتلقيه جند طاهر الذي لم يلبث أن أمر بقتله . وقد بعث طاهر برسالة مطولة الى المأمون شرح فيها كل الظروف المحيطة بانتهاء حرب بغداد والتي أدت الى قتل الأمين . وقد أبان في هذه الرسالة بوضوح اختلافه مع القائد العربي هرثمة ابن أيمن الذي كان من رايه تخلية سبيل الأمين ، وهو يعزل تشدده في رفض ذلك بأنه لا يريد أن يثير الأمين فتنة من جديد ، ثم يدعى طاهر أن مواليه هم الذين اقتلوا الأمين تقريبا منهم الى المأمون (وتناولوه بأسيا فهم منازعة فيه وتشاحنوا عليه) ، ثم يعزل تمثيله به ووضعه رأسه على أحد أبواب بغداد بقوله (فلما أصبحت هاج الناس واختلفوا في المخلوع فمصدق بقتله ومكذب ، وشاك وموقن ،

فرايت أن أ طرح عنهم الشبهة في أمره ، فمضيت براسه لينظروا اليه فيصبح بعينهم » .

فماذا كان موقف المأمون من مقتل أخيه ؟ يقول الطبرى ان الفضل بن سهل دخل عليه برأس محمد على ترس بيده ، فلما رآه المأمون سجد ، وسجوده - في رأيى - كان تعبيرا عن شكره لله تعالى الذى آزره ونصره وهو المستضعف المظلوم المسلوب الحق . أما أنه لم يحزن على قتل أخيه بهذه الصورة البشعة فهذا ما ننفيه تماما . ولعل مما يصور المة قول الفضل بن سهل الذى نراه تعبيرا عما بنفس المأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألستهم ، أمرنا أن يبعث به أسيرا فبعث به عقيرا » . وما أمر به الفضل انما كان من توجيه المأمون . ولهذا غضب المأمون على طاهر غضبة عنيفة ، وولى كل ما كان افتتحه من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن الحسن بن سهل أخا الفضل . ولم تصف له نفسه بعد ذلك قط ، بل يروى أنه أوعز الى غلام له بمرافقة طاهر في ولايته لخراسان حتى اذا صادف غرة منه دس له السم . ونحن وان كنا نستبعد أن يفعل المأمون ذلك ، الا أننا نؤمن بكراهيته الشديدة له ازاء ما فعله بأخيه ، ولكن يد طاهر العظمى في بناء دولة المأمون جعلته يتغاضى عن كرهه له في الظاهر ، ويذكر ابن طيفور أن المأمون قال لطاهر : أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة لست أنا ولا انت رابعهم ولا خامسهم وهم : الفضل بن الربيع ، وبكر بن المعتمر ، والسندى بن شاهك ، هم والله ثار أخى وعندهم دمه . ولكنه في موطن آخر بكى حين دخل عليه طاهر ، فما عرف أحد سر بكائه ، وجهد طاهر أن يعرف السر ، فأغرى خادم المأمون بمال كثير حتى استطاع أن يعرف سر هذا البكاء اذ قال المأمون « انى ذكرت محمدا أخى وما ناله من الدلة فخنقننى العبرة فاسترحت الى الافاضة ولن يفوت طاهرا منى ما يكره » . ويبدو أن طاهرا أحس كراهية المأمون له فدبر في نفسه أمرا ، ذلك أنه صعد المنبر يوم الجمعة فخطب فلما بلغ الى ذكر الخليفة أمسك

عن الدعاء له . ولم تمض عليه هذه الليلة حتى كان قد مات ، ولهذا اتهم المأمون بتدبير موته - وهذا بعيد عندي - وان كان قد أظهر شماتته حين بلغه نعيه فقال ، لليدين وللنم ، الحمد لله الذي قدمه وأخرنا .

والواقع ان مقتل الأمين بيد طاهر ومواليه الأعاجم لا ينبغي ان ينظر اليه على أنه حادث فردى عابر ، بل هو جزء من قضية أساسية هي قضية الصراع بين العرب والأعاجم . فقد رأينا كيف أن إقائد الأمين كان يصيح في جنوده ويقول لهم : « انهم لعجم وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر » . فكان الأمين كان يمثل جانب العرب في حربه ضد أخيه الذي يمثل جانب العجم . والظروف التي وضع فيها الاثنان كانت تحتم أن يحدث هذا الصدام بين العرب والعجم على الرغم منهما . فالمأمون في قلب بلاد العجم ، ووزرائه ومستشاروه كلهم من العجم ، ولا بد أن قواده وجنوده سوف يكونون منهم الا القليل ممن لزمه أو لجأ اليه مثل هزيمة ابن أيمن . ولكن اذا كان المأمون قد وجد في هذا الموقف اضطرارا فان وزيره الفضل بن سهل قد استغل هذا الموقف استغلالا كاملا متعمدا لصالح العجم ضد المصالح العربية . وقد استطاع أن يسيطر على المأمون سيطرة كاملة حتى قيل أنه قد أنزله إقصرا حجبته فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالراى دونه .

وعلى الرغم من استقرار الخلافة للمأمون بعد مقتل أخيه وبقائه سيد الامبراطورية الأوحده كما يقول بروكلمن الا أنه ظل في مكانه بمرور بتدبير الفضل بن سهل قرابة خمس سنوات ، وكان الفضل يرمى من وراء ذلك الى نقل مركز الخلافة الاسلامية من العراق الى خراسان ، واختيار مرو عاصمة للخلافة ، وبذلك يحس الأعاجم من الفرس بعودة دولتهم اليهم . وكان الفضل يصنع صنيع وزراء الفرس الأقدمين فقد هيا كرسيا مجنحا كان يحمل فيه اذا دخل على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ،

فيوضع الكرسي وينزل منه فيمشي ، ثم يحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، فيسلم الفضل عليه ويعود فيجلس على كرسيه . ويقول الجعشيارى « وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة ، فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه » .

وكان من نتيجة بقاء المأمون بعيدا عن مركز الخلافة الأسمى في بغداد أن كثر الطامعون في الخلافة الخارجون عليها ، الكاهون لحكم الفضل بن سهل وجماعته من الفرس ، حتى انه أوعز الى المأمون بأن يعين أخاه الحسن بن سهل مكان طاهر بن الحسين - كما سبق أن أشرنا - ويبعد طاهرا فيوليه على الموصل والجزيرة والشام والمغرب ، ثم يندبه لقتال نصر بن شبيب أول الخارجين على دولة المأمون ، وهو من بنى عقيل ، كان عربيا شريفا شهما ، رأى في اقتل الأمين انتصارا للفرس على العرب فغضب لذلك ، وخاصة لما رآه من ميل المأمون للأعاجم ووقوعه في أيديهم . ولما قوى أمره بانضمام كثير من العرب الناقمين اليه ، قال له بعض مستشاريه : لو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك ، فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : نبايع لبعض آل على بن أبى طالب ، فقال : ابايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقتنى ورزقنى ! - يشير الى المعتقدات الفارسية التى دخلت التشيع - قالوا : فنبايع لبعض بنى أمية ، قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبدا ، ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى أدباره ، وانما هواى فى بنى العباس ، وانما حاربهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم . وهكذا كانت أولى الثورات ضد المأمون ثورة عربية ضد النفوذ الفارسى الذى يؤرث ناره الفضل بن سهل . . .

وما لبث أن ثار على حكم المأمون المغلوب على أمره محمد ابن إبراهيم المعروف بابن طباطبا ، ثار بالكوفة يدعو الى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة . ويشير الطبرى الى سبب ثورته الحقيقية فيقول ان غلبة الفضل بن سهل على المأمون وتعيين

الحسن بن سهل واليا على العراق قد أثارت الفتن في الأمصار . واستطاع ابن طباطبا أن يهزم الجيش الذي قاده الحسن بن سهل ، ولكنه ما لبث أن مات فجأة ، فانتهدت ثورته بموته ، ولكن ما لبث أن أحيها أبو السرايا السرى بن منصور الشيباني ، وهو من رجال هرثمة بن أيمن ، يقال انه مظهر بأرزاقه فغضب أبو السرايا ومضى الى الكوفة فبايع ابن طباطبا وأخذ الكوفة واستوثق أهلها له بالطاعة ، فلما مات ابن طباطبا ، ظل أبو السرايا يقاتل جيوش المأمون التي يعدها الحسن بن سهل ، وينتصر عليها ، حتى أرسل له المأمون هرثمة بن أيمن فقتل عليه .

ولم يكد هرثمة يفرغ من قتال أبي السرايا حتى ندب لقتال محمد بن محمد العلوي الذي هجم على دور بني العباس بالكوفة ودور مواليهم وأتباعهم ، فخربها وانتهبها ، واستطاع هرثمة أن يعيد السكينة والأمن الى المدينة المنكوبة . وما برح مكانه حتى أتمه كتب المأمون بتوليته الشام أو الحجاز ، ولكنه كان يحس أن المأمون أسير الفضل بن سهل ، ليست له حرية التصرف في شيء ، وأن الفضل يريد أن يصرف الخلافة الى الأعاجم ، فأبى أن يذهب الى ولايته قبل أن يلقي المأمون ليبصره بأسباب هذه الثورات المتلاحقة ضد حكمه منذ قتل الأمين ، ويطلب اليه الانتقال الى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ويكبح الطامعين . وهنا يظهر الفضل بن سهل حقيقة نواياه ، فاستثاره بالسلطة دون المأمون يجعله يبعد المزاحمين الأقوياء مثل طاهر بن الحسين أو هرثمة بن أيمن ، ولكن اذا فكر أحدهم في الاقتراب من المأمون لافساد تدبير الفضل - وخاصة من ناحية سيادة الأعاجم في هذه الدولة دولة المأمون التي يضعها على عينه فالويل له .

لقد دخل هرثمة الى مرو كما أراد وخاف أن يحول الفضل بن سهل بينه وبين المأمون فدق الطبول عند دخوله المدينة ، وسرعان ما أوغر الفضل صدر المأمون عليه . لقد صورته في صورة المارق الذي يعادى دولة المأمون ، وأفهم الخليفة أن ثورة أبي السرايا كانت من

تدبير هرثمة نفسه ، وأثبت له دليل عداوته بعدم استجابته لأمر الخليفة بالذهاب الى الشام أو الحجاز ، وأبان له ان سبب قدمه عليه رغبته في الخلاف والتهديد بالثورة . فلما دخل هرثمة على المأمون واجهه صراحة بهذا الصراع الذي يدور ضد العرب بتدبير الفضل بن سهل ، وقال له : قدمت هذه المجوسى على أوليائك وانصارك . وأشار الى الفضل قائلاً : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رأيت هذا المجوسى في هذا المجلس على كرسى » . ولما كان صدر المأمون موغرا بكلام الفضل لم يسمح لهرثمة باطلاعه على حقائق الأمور ، وانما كان اللقاء عاصفا حارا ، واستشاط المأمون غضبا فأمر بهرثمة فوجيء على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ، ثم أمر بحبسه . وما لبث أن قتل في سجنه ، لا ندرى هل كان ذلك باذن من المأمون أو الفضل ، وان كان الطبرى يقول ان الفضل دس اليه من قتله .

وهكذا دفع القائد العظيم هرثمة حياته ثمنا لدفاعه عن العروبة واخلاصه النصيحة للمأمون الذى زادت الثورات اشتعالا ضده ، فخرج ابراهيم بن موسى باليمن ، وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . ثم بايع الطالبيون محمد بن جعفر بالخلافة وكان شيخا زاهدا محببا ، فلما ارتكب جنوده المقابح والخطايا أعلن خلع نفسه والعودة للطاعة . وفي السنة ٢٠٠ هـ (سنة ٨١٥ م) ثار بالبصرة زيد بن موسى المعروف بزيد النار لكثرة ما حرقه من دور العباسيين وأتباعهم في البصرة . وبعد مقتل هرثمة ثار الجنود في وجه الحسن بن سهل وطرده من بغداد ، فلجأ الى المدائن ثم ارتد الى واسط بسبب ما هاج من الفتن ضده .

والحقيقة ان موقفه المأمون من الصراع بين العرب والفرس لم يكن واضحا كل الوضوح في هذه الفترة ، فعلى الرغم من غلبة الفضل بن سهل عليه الا أن بعض العرب الذين كانوا حوله ، كانت تتمثل فيهم العصبية العربية . ولم يملك أحدهم نفسه وهو يحيى بن عامر بن اسماعيل الذى أغلظ للمأمون لوقوعه تحت تأثير

الفرس فقال له : يا أمير الكافرين ! فأمر به المأمون فقتل بين يديه .

أما عبد الله بن مالك الخزاعي فكان عربيا له مكانته منذ أيام المهدي والرشيدي ، وكان يمثل الحزب العربي في بطانة المأمون بمرور ، فناصبه آل سهل العداء ، وأخذوا يكيدون له عند المأمون حتى أمر به فحمل على ظهر جمل وضربت استه كما يضرب الصبيان ! . ومن العجيب أن الفضل بن سهل الذي يدبر كل ذلك ويحرك المأمون لتنفيذ ما دبره ، يظهر نفسه أمام المأمون بمظهر الناصح المشفق عليه لكثرة ما يتعقب العرب بالقتل ، وذلك حين أراد أن يقتل نعيم بن حازم ، فيذكره الفضل بما كان منه قائلاً : « يا أمير المؤمنين انك قتلت بالأمس هرثمة وقدره في الناس قدره وأظهرت موته ، وقد تيقن الناس قتلك إياه ، وضربت عنق يحيى ابن عامر صبوا ، وأمرت بحمل عبد الله بن مالك وضربت استه كما يضرب الصبيان » ويبدو أن المأمون قد وقر في نفسه - بتأثير الأعاجم بطبيعة الحال - أن العرب ليسوا أهل طاعة وولاء ، ويتضح هذا من حديث رواه الطبري أن رجلا تعرض للمأمون بالشام فقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ، أعزب فعل الله بك .

وتأكيدا لسيادة الفرس واستئثارهم بالسلطان - والمأمون بينهم في مرو - استطاع الفضل بن سهل أن يميل قلب المأمون الى العلويين ، واستغل فيما يبدو ثوراتهم المتلاحقة ضد المأمون سلاحا للتأثير عليه ليقبلهم كأولياء فيكف أيديهم عن حربه . وتختلف الآراء بالنسبة لموقف المأمون من العلويين . فمن قائل انه

كان شديد الميل اليهم طبعاً لا تكلفاً ، ويدلون على ذلك بأنه كان يحرص على حضور جناز رؤسائهم كيحيى بن الحسين بن زيد الذى صلى عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، على حين أنه أرسل أخاه صالحاً لينوب عنه فى جنازة أحد العباسيين الأقرباء ، وقد مات بعد يحيى بقليل ، فلما عزى صالح أم الفقيد وهى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ابنة عم المنصور - وكانت لها عند العباسيين هيبة ومنزلة عظيمة . واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه ، ظهر غضبها وقالت لحفيدها : تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت بقول الشاعر :

سببكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد !

ثم قالت لصالح : قل له يا ابن مراجل : أما لو كان يحيى ابن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته !

وحين مات محمد بن جعفر - وكان قد أرسل الى خراسان بعد خروجه على المأمون - دخل المأمون بين عمودى السرير فحمله حتى وضعه فى لحده وقال : هذه رحم مجفوة منذ مائتى سنة ، وقضى دينه وكان عليه نحو ثلاثين ألف دينار .

ويرى بعض الباحثين أن المأمون كان يفضل على بن أبى طالب على غيره من الخلفاء الراشدين ويرى أنه كان أحق بالخلافة منهم ، ويرجعون هذا الاعتقاد الى تأثير البيئة التى تربى فيها المأمون فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل الى الفضل ابن سهل ، وكلاهما يضرر التشيع ، فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه . ولهذا كان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم . وظل على عقيدته تلك الى آخر حياته بدليل ما جاء فى وصيته لأخيه المعتصم : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها

فى كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى » .
ويمكن أن نفسر فى ضوء هذا الاعتقاد ما قاله المأمون لزئنب بنت
سليمان بن على التى كان العباسيون يعظّمونها - كما أشرنا من
قبل - حين سألته عما دعاه الى نقل الخلافة من بيته الى بيت
على ، قال : يا عمة انى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن الى
بنى العباس ، وما رأيت أحدا من أهل بيتى حين أفضى الأمر اليهم
كافؤوه على فعله فى ولده ، فأحببت أن أكافئه على احسانه .

والمأمون حين قال ذلك وحين كتب وصيته كان بعيدا عن تأثير
الفضل بن سهل بعد أن قضى نحبه منذ زمن طويل ، ولكن لا يخلو
اعتقاده مع ذلك من تأثير قديم صحب نشأته .

وقد يرى بعض الباحثين أن المأمون لم يكن يعتقد ما يقوله
حقا بدليل مناقشته لعلى بن موسى الرضا الذى اختاره لولاية عهده
اذ قال له : يم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من النبى صلى
الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة . فقال المأمون ، ان لم يكن ها هنا
شئ الا القرابة ، ففى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أهل بيته من هو أقرب اليه من على ، ومن هو فى القرابة مثله ، وان
كان بقرابة فاطمة من رسول الله ، فان الحق بعد فاطمة للحسن
والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، واذا كان
الأمر على ذلك فان عليا قد ابتزهما جميعا وهما حيان صحيحان
واستولى على على ما لا يجب له . وما دام رأى المأمون كذلك
فميله الى العلويين اذن كان مجرد مناورة سياسية بارعة منه ،
فهو يريد أن يحمل العلويين على الظهور لأن القوم كادوا يعدونهم
من غير الطينة البشرية ، فارتأى أنهم متى ظهروا من استتارهم
للناس ، رأوهم مثل غيرهم ، وفيهم الفاجر والطاهر ، فتنتهى
المطالبة أو تخف ، وتحقق الدماء .

وهذا رأى الذى يبديه محمد كرد على منقول فى الحقيقة عن
القفطى الذى يريد أن يثبت أن المأمون كان أعظم دهاء من الفضل
ابن سهل ، فهو يقول ان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على

ابن أبى طالب متخشين مختلفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنون به الأنبياء : ويتنوهون فى حقهم بما يخرجهم عن الشريعة من التعالى فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ، ثم فكر أنه اذا فعل هذا بالعوام زادهم اغراء به ، فنظر فى هذا الأمر نظرا دقيقا ، وقال لو ظهوروا للناس وراوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذما ، ثم قال : اذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءا ، واذن فالرأى أن تقدم أحدهم ويظهر لهم اماما ، فاذا راوا هذا انسوا وظهروا وأظهروا ما خفى بالاختفاء ، فاذا تحقق ذلك أزلت من أقمته ، ورددت الأمر الى حالته الأولى .

وقوى هذا الرأى عنده وكنتم باطنه عن خواصه وأظهر للفضل ابن سهل أنه يريد أن يقيم اماما من آل أمير المؤمنين على ، واهتديا الى الرضا ، فأخذ الفضل فى تقرير ذلك وترتيبه وهو لا يعلم باطن الأمر ، وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا فاختر طالع السرطان وفيه المشتري . فأراد عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم أن يعلم نية المأمون فى هذه البيعة فأنفل اليه رقعة قبل العقد مع ثقة من خدمه ، قال فيها : ان هذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقض لأسباب فلكية بينها ، فرد عليه المأمون : قد وقفت على ذلك أحسن الله جزاءك ، فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا ، فانه ان زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له . فهم ذو الرياستين بذلك ، فما زال عبد الله ابن نوبخت يصوب رايه الأول حتى مضى أمر البيعة واعتقد أن هذه القصة موضوعة لتبرئة الفضل بن سهل من تهمة تحويل الخلافة الى العلويين ، ويبدو لى أن المأمون قد تأثر بتعاليم المعتزلة وهو ما يزال فى مرو ، فكان رأيه فى الخلافة رأيهم أن تكون للأصلح لها فى المسلمين ، ولو كان من غير قريش ، ولهذا كان متحيرا فى اختبار ولى عهده . وقد كانت مسألة الامامة من أخص موضوعات

الخصومة بين العرب والفرس التى كانت نفس المأمون مسرحا لها . وقد جعلت الحيرة فى أمرها تجاذبه مجاذبة متصلة ذات اليمين وذات الشمال كما يقول الدكتور الحاجرى بحق . ولهذا نراه يدعو العلماء الى الكتابة فى أمر الامامة ، وأن تحمل كتبهم اليه فى مرو ، وكان الجاحظ أحد الذين استجابوا له وأرسلوا كتبهم اليه .

ومن الواضح أن المأمون قد أقتنع بعدم صلاحية أخيه القاسم الملقب بالمؤمن للخلافة ، فأعلن خلعه منذ عام ١٩٨ هـ ، ولم يخالف بهذا الخلع عهد الرشيد اذ جاء فيه « فاذا أفضت الخلافة الى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر اليه فى امضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه الى من رأى من ولده واخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، يحكم فى ذلك بما أحب ورأى » . ويبدو أن الفضل بن سهل انتهاز فرصة خلو ولاية العهد وحيرة المأمون فى اختيار الأصح لها ، فزين له على بن موسى بن جعفر لفضله وورعه وعلمه فاختره وليا للعهد عام ٢٠١ هـ وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق طالبا أخذ البيعة له . وغضب أهل بغداد لذلك وقالوا : انما هذا دسيس من الفضل بن سهل واجتمع العباسيون فقرر رأيهم على خلع المأمون ولكنهم اختلفوا على شخص الخليفة منهم ، فعرضوا الأمر على منصور بن المهدي فأبى وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولى من أحب ، فبايع أهل بغداد لابراهيم بن المهدي بالخلافة وسموه المبارك . وغلب ابراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله ، وعسكر بالمدائن . وابراهيم هو عم المأمون ولكنه كان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء اسمها شكلة ، وكان مع سواده عظيم الجثة ، ولهذا يقال له التنين .

ولم يثر أهل بغداد فحسب على المأمون لصرفه الخلافة الى العلويين بتأثير الفرس ، بل نجد العرب فى خراسان يثورون أيضا ولا يتحرج نعيم بن حزام أن يقول للفضل بن سهل فى حضرة

المأمون : انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولولا انك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده وهى البياض الى الخضرة ، وهى لباس كسرى والمجوس . فكان نعيم بن حازم يريد أن يقول أن الفضل بن سهل صرف الخلافة الى أولاد على كمرحلة انتقالية تصير بعدها الى الفرس ، ودليله على ذلك اختيار اللون الأخضر وهو شعار الفرس بدلا من الأسود الذى يميز العباسيين ، والأبيض الذى يميز العلويين . وكان هذا هو فهم العرب الصحيح للموقف السياسى اذ ذلك ، ولهذا جاهدوا الجهد كله فى تبصير المأمون بالعاقبة .

ولعلنا نتساءل : كيف تم اختيار على بن موسى من بين العلويين ؟ يقول صاحب « مقاتل الطالبیین » أن المأمون وجه الى جماعة من آل أبى طالب فحملوا اليه من المدينة وفيهم على بن موسى الرضا ، فلما قدموا على المأمون أنزلهم دارا وأنزل على بن موسى الرضا دارا ، ووجه الى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد له ، وأمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك . ففعل واجتمعا بحضرته ، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما فيه اخراج الأمر من أهله عليه ، فقال له : انى عاهدت الله أن أخرجها الى أفضل آل أبى طالب أن ظفرت بالمخلوع ، وما أعلم أحدا أفضل من هذا الرجل . فاجتمعا معه على ما أراد فأرسلهما الى على ابن موسى الرضا ، فعرضا ذلك عليه فأبى ، فتهدداه وتهدده المأمون حتى قبل ، وحين أجلسه للبيعة جعل ابنه العباس أول المبايعين . وهذا النص يطلعنا على رغبة المأمون الحقيقية فى اختيار ولى عهده من بين الطالبیین ، وأن فكره اتجه الى على بن موسى الرضا بدليل انزاله فى دار مستقلة . ويبدو أن عليا كان طيب السمعة حتى انه كان يكنى بأبى بكر فى نزاهته وعدالته . أما معارضة الحسن ابن سهل فلعلها من تدبير أخيه الفضل ليبعدا عن نفسيهما تهمة التأثير على المأمون فى ذلك الأمر الخطير . وربما كانت فكرة تعيين أحد العلويين فكرتهما حقا ، ولكن اختيار الشخص نفسه كان بتدبير

المأمون بدليل الكراهية المتبادلة بين علي بن موسى الرضا من جانب ، والفضل وأخيه الحسن من الجانب الآخر . وبفعل هذه الكراهية استطاع ولي عهد المأمون أن يوغر صدره عليهما بتعداد مساوئهما ، كما نجح في إزالة الفشادة من على عينيه وتبصيره بالحقيقة التي يحاول الفضل اخفاءها عنه دائما . لقد كشف له عن الفتن التي تضطرب بها البلاد منذ خلوص الخلافة له ، وكيف أن أهل بيته والناس جميعا قد نعموا عليه أشياء حتى قالوا عنه أنه مسحور مجنون . ولما بلغ بهم الضيق كل مبلغ بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي بالخلافة . وبدأ المأمون كأنه يسمع ذلك لأول مرة ، فقد رد قائلا : انهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وانما صيره أميراً يقوم بأمرهم ! ووضح أن هذا ما أخبره به الفضل ليحجب عنه خطورة الموقف . ولم يجد على بن موسى بدا من اخبار المأمون بأن الفضل قد كذبه وغشه ، وأن الحرب دائرة بين ابراهيم والحسن بن سهل ، وأن الناس تكره مكان الفضل وأخيه من المأمون . وكان على صريحا غاية الصراحة حين ذكر للمأمون أن الناس تكرهه أيضا وتكره ولايته للعهد . واستطاع المأمون أن يستوثق من صحة هذه الأنباء الخطيرة بعد سؤال جماعة طلبوا الأمان من الفضل بن سهل أولا ، فأيدوا قول علي بن موسى وزادوا عليه اخبار المأمون بحقيقة موقف هرثمة الذي جاء ينصحه فقتل ، وحقيقة موقف طاهر بن الحسين الذي أخلص له فأقصى الى الرقة .

وانقشعت سحابة الأكاذيب التي صنعها الفضل بن سهل ليحجب الحقائق عن المأمون بقصد ابعاده عن طوفان السياسة . لا لخوفه أن يفرق فيه ، ولكن لابقائه في قاع الطوفان . عندئذ قرر المأمون أن يترك مرو ويهجر خراسان التي عاش فيها أشقى وأحلى فترات حياته ، لينطلق الى بغداد يواجه عاصفة السياسة متحديا ، بدلا من اخفاء رأسه في أكاذيب الفضل بن سهل التي يريد أن ينسج منها مجد الفرس لا مجد العرب .

ثانيًا : في بغداد

بدأ المأمون رحلته من مرو قاصدا بغداد في أواخر عام ٢٠٢ هـ ، ولكنه لم يصل الى بغداد الا في أوائل عام ٢٠٤ هـ ، فكانه قضى ما يقرب من عامين في الطريق من خراسان الى العراق ، وهذا أمر يدعو الى أشد الغرابة والتساؤل ، وكأني بالمأمون كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو في طريقه الى بغداد ، وكأنه كان يتوقع أمرا جلاا ويتوجس من أعظم الأخطار .

والحقيقة ان المأمون رسم سياسة حكيمة للقضاء على الفتنة في العراق بهذا التمهّل الشديد في رحلته اذ جعل أعداءه يتهاوون واحدا اثر الآخر كلما أحسوا باقترابه . ونرى المأمون في الوقت ذاته ، يعيش في المدن التي مر بها أياما وشهورا ليثبت حكمه ويقوى سلطانه ، وكأني به يريد أن يقول للناس في كل مكان : هأنذا ببنكم ، أتفقد بنفسى أحوالكم ، وقد أصبح الفضل بن سهل غير مستطيع التأثير على ، لأنى أقيم الآن شئون حكمى بنفسى .

وأهم المدن التي توقف المأمون عندها وطال مكثه فيها والتي تعتبر مراكز تحركاته منذ غادر مرو : سرخس ، طوس ، جرجان ، الري ، النهروان . ولا نعرف بالضبط المدة التي قضاها في كل مدينة ، ولكننا نعرف بعض هذه المدن من خلال أحاديث الطبرى ، فقد قضى في سرخس مثلا ما يقرب من ستة أشهر .

وفي خلال هذه الرحلة الطويلة جرت أحداث خطيرة ، يعسر على الانسان أن يصدق أنها محض صدفة ، فما ان غادر المأمون مرو في طريقه الى بغداد حتى كانت سرخس أولى المدن التي عرج عليها ليقيم فيها . وفي خلال اقامته بهذه المدينة تمت حادثة اغتيال مروعة

لوزيره ومستشاره الأول الفضل بن سهل (١) ، دخل عليه المتآمرون وهو في الحمام فضربوه بالسيف . واختلف المؤرخون حول شخصيات الذين اغتالوه ، فذكر الطبرى أنهم أربعة : غالب المسعودى الأسود ، وقسطنطين الرومى ، وفرج الديلمى ، وموفق الصقلبى ، بينما نجد اليعقوبى يذكر أن القتلة اثنان : غالب الرومى صاحب ركاب المأمون ، وسراج الخادم . واتفق المؤرخان أن الذى دس فى قتل الفضل ابن أخته على بن أبى سعيد (٢) ، أو هكذا اعترف القتلة أمام المأمون . ويبدو أن غالبا كان زعيم المؤامرة اذ يذكر اليعقوبى أن الفضل حاول رشوته بمائة ألف دينار ليهب له حياته ، فقال له غالب « ليس بأوان تملق ولا رشوة » . ومن العجيب أن بعض المصادر تذكر أن غالبا هذا هو خال المأمون وهذا أمر نستبعده ، ولا بد أن يكون فى الكلمة تحريف ، فلعل الكاتب أراد أن يقول « خادم » المأمون . واختلف الباحثون حول دور المأمون فى هذه الجريمة الغامضة ، هل تمت بتدبيره خصوصا وأن القتلة من عبيده وخدمه ، ويد التدبير واضحة فى اختيارهم من أجناس مختلفة حتى لا يكون ثار الفضل محصورا فى جنس بعينه ، واذا كان المأمون قد بعث فى طلب القتلة بعد هروبهم وجعل جائزة كبيرة لمن يأتى بهم ، فقد يكون ذلك مجرد تمويه منه لاختفاء الحقيقة . بل لقد تردد فى كتابات بعض المؤرخين أن القتلة واجهوا المأمون بأنه هو الذى أمرهم بقتل الفضل فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ، فقال لهم : أنا أقتلكم بأقراركم ، وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة . وقيل أنهم اتهموا ابن أخت الفضل بذلك ، ولو صحت هذه الرواية فإن قولهم كان لابعاد الشبهة عن المأمون ، اذ ليس مقتل الفضل من مصلحة ابن أخته

(١) يقول اليعقوبى ان اغتيال الفضل تم فى قومس ولم يذكر ذلك غيره

(تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٧٩)

(٢) يذكر اليعقوبى أنه ابن خالته (تاريخ اليعقوبى ٣ : ١٨٠)

على بن أبى سعيد الذى وجد كل معونة من الفضل وكان يعهد اليه بأعمال سياسية خطيرة .

واتماما لفصول الرواية أمر المأمون بقتل المتآمرين جميعا ومعهم من حامت حولهم الشكوك والشبهات وهم : عبد العزيز بن عمران الطائى ، وخلف بن عمر البصرى ، وموسى البصرى وعلى بن أبى سعيد (١) ولا بد أن القتلة قد ذكروا هذه الاسماء أمام المأمون فأخذهم بالشبهة ليدرا عن نفسه التهمة .

ويميل أكثر المؤرخين الى اثبات يد المأمون فى مقتل الفضل ، ويتابعهم فى ذلك بعض الباحثين المحدثين (٢) والحقيقة ان الملابس كلها تدين المأمون ، فهو قد هجر مرو بعد أن أحس اهتزاز عرشه ووسطوة الفضل عليه ، ثم هو فى طريقه الى بغداد ضد ارادة الفضل وجماعته من الفرس ، وهو يعلم أن أهل العراق ناقمون عليه بسبب تأثير الفضل عليه ، فلماذا لا يكتسب محبة العراقيين بالتخلص من الفضل ، وهو بذلك يستطيع أن يحكم فى حرية ، ويثبت لمن حوله قدرته على الاضطلاع بمهام الدولة بنفسه دون استشارة أحد . وأراد المأمون أن يستميل الحسن بن سهل والفرس جميعا الى جانبه ، فاسترضاه وبعث اليه برؤوس ضحايا المؤامرة ، وصيره فى مكان أخيه من الناحية الظاهرية ، بل أراد أن يوثق صلاته بآل سهل الى أبعد مدى فتزوج بوران بنت الحسن بن سهل بعد شهور من مقتل الفضل ، ولم يكن من دافع وراء هذا الزواج غير السياسة ، اذ كانت بوران فى ذلك الوقت طفلة لم تتجاوز العام العاشر من عمرها ، ولهذا عقد المأمون عليها توكيدا للمعنى السياسى الذى قصده ، ولم يدخل بها الا بعد انقضاء ثمانية أعوام .

(١) ذكر الطبرى أسماءهم كما يلى : عبد العزيز بن عمران وموسى وخلف ، أما يعقوبى فذكرهم بالصورة التى اثبتناها .

(٢) من المؤرخين الطبرى وابن الطقطقى وابن خلكان والمسعودى الذى انفرد برواية غريبة بعيدة عن الصحة وهى أن المأمون قتل الفضل لانه ضايقه فى جارية اشتراها (مروج الذهب ٢ : ٣١٧) ومن الباحثين الشيخ الخضرى .

ويرى كاتب مادة المأمون في دائرة المعارف الإسلامية ان العرب هم الذين قتلوا الفضل بن سهل باعتباره عدوا لهم ، والحقيقة ان مقتل الفضل لم يكن انتصارا للعرب بقدر ما هو ايقاف لتيار المد الفارسي الذي كان الفضل يعده ليحرف أمامه الخلافة العربية . وقد رثى شعراء الفرس الفضل بن سهل أمر رثاء ، واتجهت آمالهم بعده الى أخيه الحسن .

واذا كان الحسن بن سهل قد اخذ مكان أخيه الا أنه لم تكن له خطورة تذكر ، وكان فيما يبدو ضعيف الشخصية سهل القياد . وترك المأمون سرخس بعد انقضاء شهرين على مقتل الفضل ، ورحل الى طوس فمكث فيها عدة أشهر . وفي طوس حدثت مفاجأة جديدة اذ مات ولي عهد المأمون على بن موسى الرضا بصورة فجائية ، جعلت اصابع الاتهام تشير الى المأمون مرة أخرى في خلال ستة أشهر فحسب . فذكروا انه قدم لولي عهده عبا مسموما أو رمانا في بعض الروايات . ويقول ابن طباطبا في ذلك : « ثم دس (المأمون) الى على بن موسى الرضا سما في عنب - وكان يحب انعنب - فأكل منه واستكشر فمات من ساعته » ثم كتب الى بنى العباس ببغداد يقول لهم : ان الذي أنكرتموه من أمر على ابن موسى قد زال ، وان الرجل قد مات » .

والربط بين موت على بن موسى وبين رسالة المأمون الى العباسيين بهذه الصورة توحى حقا بأن المأمون قد دبر مقتل على . أما اليعقوبى فهو مؤمن ايضا بأن وفاة على بن موسى لم تكن طبيعية ، ولكنه لم ينسب ذلك الى المأمون صراحة ، فهو يقول : « يقال ان على بن هشام أطعمه رمانا فيه سم » ولكنه لم يذكر لنا من هو على بن هشام ، وأغلب الظن أنه واحد من حاشية المأمون ، بل هو كذلك بالفعل ، فهل دبرت الحاشية هذه الجريمة دون علم المأمون ؟ ان اليعقوبى يثبت حزن المأمون الشديد على وفاة على الرضا ، فهو ينقل عن شاهد عيان أن المأمون سار في جنازة الرضا حاسرا في مبطنة بيضاء ، وهو بين قائمتى النعش يقول : الى من أروح

بعدك يا أبا الحسن ؟ وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى في كل يوم برغيف وملح فيأكله ، ثم انصرف في اليوم الرابع .

ثم لا ننسى أن المأمون قد وثق صلته بولى عهده قبل مقتله بشهور ، إذ زوجه ابنته أم حبيب ، كما زوج محمد بن علي ابن موسى ابنته الأخرى أم الفضل على حلقة لونه وسواده ، ومع ذلك يتهمه أكثر من مرجع بتدبيره موت ولى عهده امام الشيعة الثامن . وقد أكد هذا أبو الفرج الأصفهاني وأبدى اقتناعه التام بموت علي ابن موسى بالسم ، ولكن التردد في كيفية السم الذي سقيه . وبرغم اقتناع أبي الفرج الأصفهاني أقر بأن المأمون لم يظهر موت علي ابن موسى في وقته ، وتركه يوما وليلة ثم وجه الى محمد بن جعفر ابن محمد وجماعة من آل أبي طالب ، فلما أحضرهم وأراهم آياه صحيح الجسد لا أثر له ، بكى وقال : عز علي يا أخى أن أراك في هذه الحالة ، وقد كنت أؤمل أن أقدم قبلك ، فأبى الله إلا ما أراد . وأظهر جزعا شديدا وحزنا كثيرا . وخرج مع جنازته يحملها فدفنه الى جانب هارون الرشيد . ومن العجيب أن أبا الفرج هو المصدر الوحيد الذي أثبت أن المأمون دخل الى علي بن موسى في علة يعوده ، فوجده وجود بنفسه ، فبكى وقال : اعز علي يا أخى بأن أعيش ليومك ، وقد كان في بقائك أمل ، وأغاظ على من ذلك وأشد أن الناس يقولون انى سقيتك سما ، وأنا الى الله من ذلك برىء ، فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برىء .

والمتمعن في هذه الروايات جميعا يخرج بعدة حقائق في هذه القضية ، منها أن اشاعة دس السم قد انتشرت بمجرد مرض علي ابن موسى وقد تبرأ منها المأمون ووافقه على ذلك علي بن موسى نفسه برواية أبي الفرج الأصفهاني وميوله الشيعة غير منكورة . ومنها أيضا أن المأمون حرص على اطلاع العلويين على جسد علي ابن موسى بعد وفاته ليعاينوا بأنفسهم كذب اشاعة التسمم وهو يترك آثارا ظاهرة . ويضاف الى ذلك جزع المأمون الشديد على ولى عهده ، وهو في الوقت ذاته زوج ابنته ، كما ثبت من الروايات

جميعا اعجاب المأمون بشخصه لحكمته وصدقه ، ولا ننسى أن على ابن موسى هو الذى كشف للمأمون حقيقة الدور الخطير الذى يقوم به الفضل بن سهل ، فكان السبب المباشر فى اتجاه المأمون الى العراق . فالأقرب الى التصور اذن - أن كان موت الفضل قد تم بالسهم حقا وليس موتا طبيعيا - أن يكون ذلك بتدبير آل سهل انتقاما لمقتل الفضل ، وردا على افساده تدبير الفرس بالاستقرار فى مرو . ولعل السم المستخدم فى هذه الحالة لا تكون له آثار ظاهرة . ومن المؤرخين الذين استبعدوا قتل المأمون لعلى بن موسى ابن الأثير واقتنع بذلك بعض الباحثين المحدثين مثل الخضرى الذى نسب القتل الى بطانة المأمون لرغبتهم فى اجتذاب ولاء العباسيين له . ومثل أحمد فريد رفاعى الذى استند الى أن شخصية المأمون وخلقه يجعلان فرض قتله لولى عهده فرضا واهنا ضعيفا . ولكن الباحثين من الشيعة يؤمنون بصحة هذا الافتراض كل الايمان .

وإذا كنا قد ملنا الى تأييد فكرة تدبير المأمون مقتل الفضل ابن سهل ، الا أننا نؤمن بعدم اشتراكه فى تدبير هذا الموت الفجائى لعلى الرضا ، ولو أن فائدة المأمون محققة بموت الشخصين .

أما رسالة المأمون الى بنى العباس يدعوهم فيها الى طاعته بعد وفاة على الرضا فلا تعدو أن تكون اقرارا للواقع واستفادة به : وليس معناها أن المأمون يقول للعباسيين : لقد قتلت لكم الشخص الذى تكرهونه وتنقمون على خلافتى بسبب ولايته لعهدى ، ويحجب عنى ولاءكم .

وكان على المأمون أن يحارب فى جهات متعددة بقصد استقرار الحكم له فى الداخل ، وحماية الدولة من أعدائها فى الخارج أيضا . ففي الشرق كانت العقائد التى بشر بها أبو مسلم الخراسانى وتلميذه المقتع ، وهى القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الالهية ، قد بعثت فى أذربيجان على يد بابك الخرمى الذى اجتمع حوله خلق كثيرون ، واتسع سلطانه حتى لقد أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب . وقد بدأت ثورة بابك هذه عام ٢٠١ هـ وظلت

قوية طوال عهد المأمون بحيث لم يستطع القضاء عليها قط ، والذي أخمدها هو أخوه المعتصم عام ٢٢١ هـ ، أى أنها استمرت عشرين عاما بلا انقطاع ، بدأت والمأمون في مرو واستمرت طوال اقامته في بغداد .

وقد ظهر بابك في كورة من شمال بلاد فارس تسمى البذ ، ويقول السمعاني في كتابه الانساب أن الخرمى نسبة الى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية ، وهم قوم يدينون بما يريدون ويشتهون ، وانما لقبوا بذلك لباحثهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به . ويقول ابن النديم في الفهرست أن الخرمية صنفان : الخرمية الأولون ويسمون الحمرة ، وهم منتشرون بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمذان ودينور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز ، وهؤلاء أهل مجوس في الأصل . ويقصد ابن النديم بهؤلاء أصحاب مزدك الذي أمرهم باقتراف اللذات والعكوف على الشهوات والأكل والشرب ، ولهم مشاركة في الحرم ، ومع هذا يرون أفعال الخير وترك القتل . أما الخرمية البابكية فان صاحبهم بابك الخرمى كان يقول لمن استغواه : انه اله ، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب ، فكان ثورته ضسد الخلافة العباسية كانت ثورة عقائدية تريد أن تطيح بالاسلام وتقوض أركان المجتمع بما تحدث فيه من آراء هدامة . ولهذا لم يتوان المأمون عن قتال الخرمية ، ولكن جميع قواده الذين أرسلهم لقتال بابك قتلوا أو وقعوا في الأسر ، ولهذا أوصى أخاه المعتصم باستئصال الخرمية غضبا للدين وحماية له ، يقول في وصيته : « والخرمية فاغزهم ذا خرامة وصرامة وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد حاول بندلي جوزى أن يصور الحركة البابكية بأنها حركة

اشتراكية شيوعية ، وخاصة أنها كانت بالمصادفة تتخذ ألوية حمراء ، ويقول انها انتشرت انتشارا هائلا حتى ان عدد الذين انضموا الى جيش بابك في أذربيجان والديلم فقط بلغ ثلاثمائة الف نفس . ويقول أيضا ان الحركة البابكية لم تكن لمقاومة الاسلام والمسلمين ، ولا مقاومة العرب كأمة مغتصبة فاتحة ، بل محاربة النظام الاجتماعى الذى كانت تئن تحته الطبقات السفلى ، وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها ، ولا ظالم ولا مظلوم ، ولا غنى ولا فقير ، ولا سيد ولا عبد ، نظام مبنى على العدل والاخاء والمساواة ، ثم يحاول الباحث بعد ذلك ان يدحض كل الاتهامات التى توجه الى الحركة البابكية ، والتى تصور شذوذا الاجتماعى واستباحتها للمحرمات .

وبندلى جوزى فى دفاعه عن الحركة البابكية انما يدافع عن حركة شيوعية ملحدة ، لا يهमे منها غير هذا الجانب ، اما مخالفتها للدين وتصادمها مع القيم الروحية والخلقية فلم يكن يعنيه فى شىء . وقد كان المأمون مدركا كل الادراك خطورة هذه الحركة على الدين وعلى الدولة معا ، وكان يعلم جيدا الصلة بين الحركة البابكية وبين أعدائه من الروم ، ولهذا اهتم بقتال بابك وارسل عدة جيوش لقتاله ، ولكن فشل كل قواده فى انزال الهزيمة به لوعورة هذه المناطق الجبلية التى كان بابك يتحصن بها ، وللمساعدات القيمة التى كان الروم يمنحونها لبابك نكاية فى الدولة الاسلامية .

والى جانب ثورة بابك ، كان على المأمون أن يخمد ثورة أخرى فى المشرق أيضا ، قام بها حاتم بن هرثمة انتقاما لمقتل أبيه هرثمة ابن أيمن . وقد استفاد بابك من هذه الثورة العربية اذ أصبحت منطقة أذربيجان تغلى بالثورات ضد الخليفة ، وتحاول اقتطاع هذه الولايات من جسم الدولة .

وفى منطقة سجستان ومكران كان الحمزية - وهم فرقة من الخوارج تتبع حمزة بن أكرك وتقول بتكفير من لا يوافق على قتال مخالفه - تعيث فسادا فى المنطقة منذ خرجوا فى عهد الرشيد سنة

تسع وسبعين ومائة . فلما استقر المأمون في بغداد كتب الى حمزة كتابا استدعاه فيه الى طاعته فأبى ، فبعث المأمون بطاهر بن الحسين فقتل الكثير من الحمزية ، ثم استدعاه المأمون ، فطمع حمزة في خراسان فتصدى له عبد الرحمن النيسابوري أحد قواد المأمون وقضى عليه .

ويقول البغدادي ان دعوة الباطنية ظهرت أيضا في أيام المأمون ، من حمدان قرمط ومن عبد الله بن ميمون القداح ، وهى ترجع الى أصل مجوسى . وما أصدق هذا الباحث اذ يقول : « ما ظهرت البدع والضلالات في الأديان الا من أبناء السبايا ! » وكان من حظ المأمون أن ظهر منها في عهده عدد ليس باليسير ، كان عليه ان يقاومها جميعا .

وفي بغداد كانت ثورة العباسيين ضد المأمون قد أتت بابراهيم ابن المهدي خليفة - كما سبق أن ذكرنا - وطرده الحسن بن سهل نائب المأمون على العراق ، فانتقل الى المدائن ، واستطاع ابراهيم ابن المهدي أن يغلب على الكوفة والسواد كله ، ولكن لم يستقر له الأمر تماما فخاض حروبا ضد أعدائه ، وكانت بينه وبين الحسن ابن سهل وقائع كثيرة ، لم يحرز أحدهما فيها انتصارا حاسما ، ولكن ابراهيم انتصر على مهدي بن علوان الحرورى ، وعلى أخى ابن سهل وقائع كثيرة ، لم يحرز أحدهما فيها انتصارا حاسما ، الذى كان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد انتشرت دعوته انتشارا عظيما ، وعمل كل مؤمن بها برجا على باب داره نصب عليه السلاح والمصاحف ، ويبدو أن ابراهيم بن المهدي تخوف من هذه الدعوة فقاتل أصحابها وسجن زعيمها ، ولكن حينما دخل المأمون بغداد أطلق سهلا من سجنه وأجازاه ووصله وأمره أن يجلس فى منزله ليواصل دعوته ، اذ لم يجد فيها أى تعارض مع حكمه أو سلطانه ، بل وجدها - على العكس من ذلك - امتدادا لحركة المطوعة الذين كانوا نكيرا على الفساق فى بغداد .

وبعد رحيل المأمون عن طوس وافته الكتب بأن نائبه ووزيره الحسن بن سهل قد أصابته لؤثة ، بسبب حزنه على مقتل أخيه الفضل فيما يبدو - حتى شد في الحديد وحبس في بيته ليتداوى . وأظهر الناس شماتهم فيه بسبب كراهيتهم لشخصه .

ويقول أحد الباحثين أن حكم الحسن بن سهل نisابة عن المأمون دام ست سنوات ، كانت كلها طفيانا وارتباكا صائرا بالتدريج الى فوضى .

وبعد موت علي بن موسى الرضا لم يجد العباسيون في بغداد عذرا لقبول خلافة « التنين الأسود » أو « ابن شكلة » أي ابراهيم ابن المهدي فخلعوه بعد أن استمر في الخلافة سنة وبضعة أشهر ، ودعوا للمأمون بالخلافة من جديد ، فلم يجد ابراهيم بدا من الاختفاء حتى لا يتعرض لنقمة المأمون عليه ، وأخذ يعتب على العباسيين تفريطهم فيه : بعد أن نقل المأمون الخلافة الى العلويين .

ولما صار المأمون الى النهروان خرج اليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس بعد أن دانوا بطاعته ، وأراد أن يشفى الجراح التي أحدثها الفضل بن سهل في نفس قائده طاهر بن الحسين فبعث اليه ليوافيه بالنهروان وصحبه في دخوله الى بغداد ، وكان ما يزال هو وأصحابه يلبسون الثياب الخضراء لاعلان ميلهم الى العلويين ، وكان دخول المأمون الى بغداد شجاعة خارقة منه بعد أن مزقتها الفتن والثورات ، ولم يكن مع المأمون مال يستطيع أن يسترضى به الخارجين عليه كما نفهم من حديث جرى بينه وبين واحد من صحابته فقد روى أحمد بن أبي خالد - الذي صار وزيرا للمأمون بعد مرض الحسن بن سهل - قال : لما قدمنا من خراسان مع المأمون فصرنا في عقبة حلوان ، وكنت زميله ، قال لي المأمون : يا أحمد اني أجد رائحة العراق ، قال : فأجبتة بغير جوابه ، وقلت له : ما أخلقه ! فقال : ليس هذا جوابي ، ولكني أحسبك سهوت أو كنت مفكرا ، قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فيم فكرت ؟

قال : قلت فكرت في هجومنا على بغداد وليس معنا الا خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت على قلوب الناس واستعذبوها ، فكيف يكون حالنا ان هاج هائم او تحرك متحرك ؟ قال : فأطرق مليا ثم قال : صدقت يا أحمد ما أحسن ما فكرت ولكني أخبرك : الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة - يعني بغداد - : ظالم : ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع الا عفونا وامساكنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف الا بنا ، ومن كان لا ظلما ولا مظلوما فبيته يسعه . فوالله ما كان الا كما قال .

وبعد أيام من دخول المأمون الى بغداد لم يجد حرجا في العدول عن الثياب الخضراء شعار العلويين ، واتخاذ اللون الأسود شعار العباسيين ، وذلك حتى يزيل ما علق بنفوس أهله من ميله السابق الى العلويين . ومع تمزق الثياب الخضراء تمزقت العلاقة بين المأمون والعلويين التي ظلت في شبه هدنة بضع سنوات ، ولكنه مع ذلك ظل يضعهم في جانب من قلبه يحصرص عليهم ويجاملهم . وفي عام ٢٠٧ هـ ثار أحد الطالبين على خلافة المأمون - وهو عبد الرحمن ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب - وكان يدعو في أرض اليمن الى الرضا من آل محمد . فأرسل اليه المأمون جيشا كثيفا قضى على ثورته ، وغضب المأمون بعدها على الطالبين فمنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد .

بل نراه يهتم باشاعة وصلته - بعد ذلك بسنوات - عن علاقة عبد الله بن طاهر بالعلويين ، فيبعث اليه جاسوسا يستجلى حقيقة الأمر ، فلما استوثق من براءة ابن طاهر - وكان الصلة بالعلويين أصبحت في نظر المأمون تهمة خطيرة - استبشر وقال عنه : ذلك غرس يدي والف أدبى وترب تلقى .

وعلى الرغم من انشغال المأمون بحرب بابك الا انه اضطر لقتال جماعة أخرى من الخارجيين على دولته يطلقون عليهم اسم الزط ، قال عنهم ابن خلدون « وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا وافسدوا البلاد » . والزط هم النور ،

أصلهم من آسيا ، كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي ، وفد تجمعوا واستولوا على طريق البصرة في أيام الفتنة بين الأميين والمأمون ، وظلوا يشغبون على الدولة فترة طويلة دون أن تستطيع القضاء عليهم . وكما ظل بابك شوكة في جسم الدولة طوال حياة المأمون كذلك كان الزط ، فلم يقض عليهم إلا المعتصم ، والسبب في ذلك كما يقول الخضرى أنهم كانوا إذا أخرجهم الجند تفرقوا في الفياض فيصعب اصطيادهم . ولكن استياء المأمون من فشل قواده في حرب بابك والزط قابله استبشاره بالقضاء على ثورة نصر ابن شيث بعد أن تجبر نصر ورفض الطاعة للمأمون إلا على شروط قاسية ، أولها ألا يطاء له بساطا ، فكان رد المأمون على ذلك قوله : لا أحبيه والله إلى هذا أبدا ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطاء بساطي . وأجاب نصر على تحدى المأمون بصيحة الحرب قائلا : ويلى عليه ، هو لم يقو على أربعمئة ضفدع تحت جناحه - يعنى الزط - يقوى على حلبة العرب (١) . وتولى قيادة جيش المأمون عبد الله بن طاهر فكان له الظفر على نصر ، وأتى به إلى المأمون في بغداد . ولم يلبث أن سقط في يد المأمون إبراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب المعروف بابن عائشة ، ومحمد بن إبراهيم الإفريقى ، ومالك بن شاهى ، وفرج البغدادي ، وهم رؤوس الفتنة التى ثارت ضد المأمون وانتهت بخلعهم وتعيين عمه إبراهيم بن المهدي خليفة في بغداد ، ثم وقع إبراهيم بن المهدي نفسه أسيرا ، اخذ وهو متنقب في زى امرأة ، وبذلك تمت للمأمون الغلبة على الذين كانوا ينازعونه الحكم . ولم يعد أمامه خصم قوى يجاذبه الخلافة ، حتى بين قواده الأقوياء بعد أن مات طاهر بن الحسين في ظروف غامضة عقب غضب المأمون عليه واقصائه إلى خراسان . ويبدو أن

(١) لم يكن الزط أربعمئة ولكن نصرا يقلل من شأنهم . وقد بلغ تعداد الزط حين اضطروا للتسليم أيام المعتصم سبعة وعشرين ألفا بين رجل وامرأة وصبي وكان عدد المقاتلين فيهم اثني عشر ألف مقاتل .

طاهرا كان يزعم الثورة على المأمون ، وكان أحمد بن أبى خالد وزير المأمون قد تكفل بمراقبته فدرس اليه من قضى على حياته في ليل اليوم نفسه الذى قطع فيه اسم المأمون من خطبة الجمعة . ولم يلبث أن توفي في سنة ثمان ومائتين الفضل بن الربيع وزير الأمين الذى كان يناصب المأمون العداء ، ومع ذلك فقد عفا عنه بعد قدومه الى بغداد . كما توفي في السنة ذاتها موسى بن محمد الأمين الذى خاض أبوه الحرب ضد أخيه المأمون من أجل تواجته الخلافة من بعده ، ولو اطلع على الغيب وأدرك قصر عمر ابنه ما سئل سيفا ، ولا انتهى الى المصير المحزن الذى آل اليه .

ومن أخطر الثورات التى نشبت في عصر المأمون ثورة عبيد الله ابن السرى بن الحكم في مصر ، وقد انتدب لها المأمون عبد الله ابن طاهر فحاصر السرى ، فأراد صرفه عن حصاره ، فبعث اليه ليلا بألف وصيف ووصيفة ، مع كل منهم ألف دينار في كيس حرير ، فرد ذلك عبد الله بن طاهر وكتب اليه : لو قبلت هديتك نهارا لقبيلتها ليلا ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . وعندئذ لم يجد ابن السرى بدا من طلب الأمان . وكان جماعة من أهل الأندلس انتهزوا فرصة ثورة ابن السرى فنزلوا الاسكندرية وتغلبوا عليها ، فأنذرهم عبد الله بن طاهر بالحرب وأجلاهم عن المدينة .

ونشبت فتن أخرى في خلال العهد البغدادى من حياة المأمون استطاع القضاء عليها جميعا كفتنة بلال الضبابى وهو من الخوارج ، وفتنة أهل قم بسبب تظلمهم من الخراج ، وفتنة عبد السلام وابن جليس في مصر .

وظلت مصر مركزا للثورات في الحقبة الأخيرة من عهد المأمون اذ لم يلبث أن ثار أهل الوجه البحرى ومعهم الأقباط على عيسى ابن منصور عامل المأمون لسوء سيرته فيهم وضعف سياسته وتدابيره . وقد حاول عيسى إخماد الفتنة بكل ما لديه من وسائل ، ولكنه فشل ، فأرسل المأمون القائد التركى المعروف بالأفشين فقاتل الأهالى وأصاب منهم عددا كبيرا ، فخمدت الفتنة ولكن الى

حين . ولم يجد المأمون بدا من القدوم الى مصر عام ٢١٧ هـ ليتعرف بنفسه على أسباب الثورة ، ومكث فيها نحو أربعين يوما لمقاتلة الثوار وازالة أسباب الشكوى التى قامت على أساسها الثورة ، واستطاع أن يظفر بعبدوس الفهرى قائد الثورة فقتله .

ولم يشغل المأمون نفسه بأمور السياسة الداخلية فحسب — وما أكثر تقلباتها وفتنها ومذاهبها — بل شغل أيضا بالسياسة الخارجية ، وإن كان اهتمامه بها كان أقل بكثير من اهتمام أبيه الرشيد . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى طفيان السياسة الداخلية التى لم تجعل للمأمون فرصة للاهتمام بعلاقاته مع الأمم الأجنبية المجاورة وخاصة الروم أعداء العرب التقليديين . أما علاقة المأمون بأهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان الدولة العباسية كالترك والديلم فكانت قائمة على محاولة التوسع فى غزو هذه المناطق ، وقد استطاع عبد الله بن حرداذبة والى طبرستان من قبل المأمون أن يفتح اللارز والشيريز من بلاد الديلم ، وافتتح جبال طبرستان ، وأسقط حكم شهريار بن شروين عنها .

وأما علاقة المأمون بالروم فقد ظلت هادئة أكثر من عشر سنوات ، والسبب فى ذلك كما يقول ميور يرجع الى أن بطريق انطاكية ببلاد سورية كان قد توج توماس امبراطورا ، ولو نجح فى تأميره وسلطانه كفى العرب مؤونة القتال ، ولكان توماس هذا تابعا للخليفة المأمون . ولكن الخلاف الذى نشب بين توماس وميخائيل انتهى لمصلحة ميخائيل . ولولا انتظار العرب لنتيجة هذا الصراع لكان فى امكانهم غزو الروم واستباحتهم فى غمرة الخلاف على عرش القسطنطينية . وقد بدأ المأمون حربه ضد الروم عام ٢١٥ هـ ففتح كثيرا من الحصون القريبة من حدود دولته كحصن قره وماجدة وسندس وسنان ، ثم عاد الى الشام . وما لبث ان جاءته الأنباء بقتل ملك الروم قوما من أهل طرسوس والمصيعة يبلغ تعدادهم ألفا وستمائة ، فعاد مرة أخرى الى غزو الروم بعد شهر من غزوته الاولى ، ومكث فى تلك الفزوة نحو أربعة أشهر

أغار فيها على أذنه وأنطيفوا وهرقته ووجه أخاه المعتصم ففتح ثلاثين حصنا .

وفي السنة التالية دخل المأمون أرض الروم للمرة الثالثة ، وهناك طلب اليه تيوفيل ملك الروم الصلح وعرض الفدية . ولم يعد المأمون من غزوته تلك إلى الشام أو إلى مصر أو إلى عاصمة ملكه بغداد ، بل قضى نحبه في البدندون القريبة من طرسوس .

ومما يتصل بالمسائل السياسية في الفترة البغدادية من حياة المأمون اتصالا وثيقا المناقشات التي كانت تدور حول الإمامة ، وهي في الحقيقة من أقدم المسائل السياسية التي اشتجرت حولها الأهواء والعقول في البيئات الإسلامية المختلفة . وقد أشرنا من قبل إلى الجو السياسي في مرو الذي يسطرغ بالخصومة بين الفرس والعرب ، وعلاقة ذلك بمسائل الإمامة . وكان من نتيجة ذلك الصراع تعيين علي بن موسى الرضا وليا لعهد الخلافة العباسية . وبعد أن انتقل المأمون إلى بغداد ظل مهتما بمسائل الإمامة اهتماما كبيرا يتبدى لنا فيما ذكره الطبري من نقاش حاد في مجلس المأمون بين بشر بن غياث المريسي ، وثمانمة ، ومحمد بن أبي العباس ، وعلى ابن الهيثم . وكانوا يتناظرون في التشيع ، فنصر محمد بن أبي العباس الإمامية ، ونصر على بن الهيثم الزيدية .

ويربط الدكتور طه الحاجري بين كتاب إمامة معاوية الذي ألفه الجاحظ - وأشار فيه إلى تيارين متضادين يذهب أحدهما إلى لعن معاوية ويذهب الآخر إلى تهجين هذا الرأي - وبين ما ذكره الطبري في حوادث سنة ٢١١ هـ اذ يقول « وفيها أمر المأمون مناديا فنادى برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ويرى الباحث أن هذه الكلمة المقتضبة تحمل في أطوائها تاريخا طويلا من النزاع بين منزعين : منزع المعتزلة ومنزع أهل الحديث ، وكانا يتمثلان معا في دار الخلافة ، ويتنازعان توجيه سياسة الدولة الدينية . وكان

يمثل المنزع الأول ثمامة بن أشرس ، ويمثل المنزع الأخير يحيى ابن اكثم . وقد كان الحكم على معاوية من مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل الحديث (١) .

وإذا تركنا ما يمس الحياة السياسية من مسائل الإمامة فلا بد أن نقف قليلا عند الوزراء الذين عملوا مع المأمون واشتركوا معه في توجيه سياسة الدولة خلال فترة حكمه في بغداد التي استمرت نحو أربعة عشر عاما .

يقول المسعودي أنه بعد أن أظهر الحسن بن سهل العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ، ولزم منزله عدل المأمون الى استكتاب كتاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وأنه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم ، فاستوزر واحدا بعد واحد . أولهم أحمد بن أبي خالد الأحول ، وكان ينوب عن الحسن بن سهل لما تخلف في منزله ، فلما دعاه المأمون الى أن يستوزره قال : يا أمير المؤمنين : اجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها عدوي . فما بعد الغايات إلا الآفات .

ويقول المسعودي أيضا ان المأمون لم يملك بعد الفضل بن سهل كتابه أمره لقيامه بالملك واضطلاعه به ، ولم ير أحدا أنه مفتقر الى وزير يشركه في تدبيره ، ولم يكن يسمى بين يديه أحدا من كتابه وزيرا ، ولا يكاتب بذلك . فلأجل ذلك ترك كثير من الناس أن يعد كتابه من الوزراء . وفي كلام المسعودي بعض التناقض ، فهو يقول ان أحمد بن أبي خالد هو الذي أبقى أن يتسمى بالوزارة ثم يعود فيقول ان المأمون كره ذلك بعد ما كان من استبداد الفضل

(١) الجاحظ حياته وآثاره ١٨٨٠ ويقول الذهبي في أحداث سنة ٢١١ هـ ان المأمون أمر بأن يقال : خير الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم على وأمر بالنداء أن برئت الامة ممن ذكر معاوية بخير ، ولهذا يقول ان المأمون أظهر التشيع في هذه السنة . والواقع أن المسألتين منفصلتان بالنسبة لتاريخ المأمون (انظر دول الاسلام حوادث سنة ٢١١ هـ)

ابن سهل . وذلك حقيقة يكاد يشير اليها كثير من المؤرخين . فأحمد ابن أبى خالد وأحمد بن يوسف وأبو عباد ثابت بن يحيى وعمرو ابن مسعدة بن صول ، ومحمد بن يزداد بن سديد كانوا مجرد مستشارين وكتاب للمأمون ، ولم يتولوا شئون الوزارة بمسئولياتها الضخمة كما تولاها البرامكة من قبل ، أو كما تولاها الفضل ابن سهل .

وقد قام أحمد بن أبى خالد بدور كبير الى جانب المأمون منذ دخوله الى بغداد ، وهو من أصل شامي ، كان مولى لبنى عامر ابن لؤى ، وكان أبوه كاتب سر ابن عبيد الله كاتب المهدي ووزيره . وكان ابن أبى خالد ذا كفاية عظيمة . وهو الذى كفى المأمون شر طاهر بن الحسين حين انتوى الغدر - كما سبق أن بينا . ولكن شرهه الى الطعام كان من أعظم نقائصه حتى انه ولى رجلا كورة عظيمة القدر مقابل فالودج أهدها اليه ، الا أن قدرة المأمون وبراعته فى استخدام الرجال جعلته يستطيع أن يستر هذا النقص فى وزيره دون الاضرار بمصالح الدولة أو الأفراد .

ولما توفى ابن أبى خالد عام ٢١١ هـ استعان المأمون بأحمد ابن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، وهو من أهل الكوفة من موالى بنى عجل ، وكان ينولى ديوان الرسائل للمأمون منذ كان فى مرو ، وأعجب بكتابته أعجاباً شديداً ، وخاصة برسائله التى يعتذر فيها عن اقدام المأمون على قتل أخيه . واستطاعت الوشايات أن تفسد ما بينه وبين المأمون ففضى عليه بالبخور .

وتولى بعده أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى ، ويقول عنه ابن الطقطقى انه كان أهوج محمقا . أما عمرو بن مسعدة ابن سعد بن صول فهو من أصل تركى ، كان من عمال الدولة فظهرت كفايته وبلاغته ، واستطاع أن يتصل بالخليفة ، بل كان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يدى المأمون ويتصلان بكل شئونه . وكان المأمون من أشد المعجبين ببلاغة عمرو وفصاحته . وقد عمل كاتباً منذ أيام الرشيد وكان البرامكة يثنون عليه . وهو

ابن عم ابراهيم بن العباس الصولى الشاعر المعروف ، وقد توفى
عمرو سنة سبع عشرة ومائتين . وآخر من تولى شئون الحكم فى
عهد المأمون عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ، وهو من مجوس
خراسان الذين أسلموا . وقد توفى المأمون وهو ما يزال فى خدمته .
ونلاحظ أن كل الوزراء كانوا من الموالى ، وهذا راجع الى
كونهم من كتاب الدواوين وغالبيتهم العظمى — ان لم يكونوا كلهم —
من الموالى . ويضيف بعض الباحثين الى قائمة وزراء المأمون
يحيى بن أكثم التميمى ويجعلون وزارته بعد أحمد بن يوسف ،
ولكن أغلب المؤرخين لا يثبتونه ضمن وزراء المأمون (١) .

ومما تقدم يتضح لنا أن المأمون لم ينعم بمقامه فى بغداد ،
بل ظل كما كان فى مرو يخوض بحار السياسة ويبدل من نفسه
لاصلاح شأن دولته ، ويحاول أن يستميل الثائرين عليه باللين
والموادة ، فان أبوا خاض اليهم غمرات الحرب . وكان يبدل فى
ذلك جهدا ومالا حتى أتت عليه فترات كان لا يجد فى خزائنه
مالا ينفق منه على نفسه أو على الجند .

وكان لا يعتمد على وزرائه أو مستشاريه أو قضائه فى انصاف
الناس والنظر فى حاجاتهم وشكاواهم ، بل كان كثيرا ما ينهض
بهذا العبء بنفسه ، لاحساسه العظيم بمسئوليته ، وما كان
أعظمها فى تاريخ هذا الخليفة الذى عاش طوال حياته السياسية
مناضلا ومات وهو يحمل سيفه فى يده .

(١) ممن جعله من الوزراء ابن طيفور ، ومن أسقطه ابن طباطبا والمنعوى ،

الفصل الخامس في تيار الثقافة

منذ خرج العرب من جزيرتهم التقوا بثقافات أجنبية كثيرة ، أثرت في تفكيرهم واتجاهاتهم العقلية تأثرا واضحا ، وكان لقاءهم مع الأجناس المختلفة المغلوبة على أمرها لقاء اتحاد جنسى وفكرى وان ظل للعرب ولفتهم السيادة والنفوذ ، ولكن كان العنصر الفارسي من القوة والانتشار بحيث جعل للغة مكانا في المجتمع الاسلامى منذ القرن الأول ، فتأثرت بها العربية بعض التأثير ، وظهر ذلك في الشعر ، حتى أن شعراء البدو لم يعتصموا من تأثير الألفاظ الفارسية ، فكانوا يدخلونها في شعرهم للتملح كما يقول الجاحظ .

وقد يتساءل المرء : لماذا لم تتأثر العربية بغير الفارسية من اللغات المحلية في أثناء مصارعتها إياها في بيئاتها الطبيعية ، فنحن لا نكاد نجد مثل هذا التأثير الفارسي القوى بالنسبة للألفاظ السريانية أو القبطية مثلا . والسبب في هذا يرجع الى طغيان الحضارة الفارسية على غيرها من الحضارات ، كما يرجع الى تأثير الفرس القوى في البصرة والكوفة بالذات - وهما مركزان اسلاميان خطيران في الحياة الثقافية والعقلية العربية ، وخاصة ابان تكونها وتشكلها منذ القرن الأول .

وقام الموالى والرقيقى بدور خطير في تأثر العربية بالفارسية ، وقد أدى ذلك الى ظهور أسلوب عربى مولد له خصائص ومميزات

يفترق بها عن أسلوب اللغة العربية الأصلية التي جاء بها العرب المهاجرون الى البلاد المفتوحة . وقد تكون هذا الأسلوب المولد من العوائد اللغوية الراجعة الى اللهجة الدارجة في مناطق العربية القديمة كما يقول « يوهان فك » ، الا أنه تصور وجود لغة مولدة لا الأسلوب الذي أشرت اليه .

ومما ساعد على وجود هذا الأسلوب المولد ظهور شعراء من غير العرب منذ النصف الثاني للقرن الأول الهجرى مثل زياد الأعجم وأبى عطاء السندی . ولا يعنى هذا أن الأسلوب العربى الفصح قد انتهى أمره وغلبه هذا الأسلوب المولد ، ولكن كان لكل منهما تيار يسير فيه .

وكان عصر الرشيد نفسه من ازهى العصور بالنسبة لحياة اللغة العربية والتأليف فيها . ويكفى أن نذكر من علماء هذه الفترة الكسائى والأصمعى والفراء وأبا عبيدة وأبا زيد الأنصارى لتبين صدق ما ذهب اليه .

واهتم الخلفاء العباسيون اهتماما كبيرا بتعليم اولادهم أصول العربية . وقد رأينا ما فعله الرشيد فى تعليم ابنه الأمين والمأمون . ويقول الرواة ان المأمون غضب حين سمع لحنا لبعض ولده فقال لهم ، ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده : ويزين بها مشهده ، ويفل حجج خصمه ، بمسكنات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته : فلا يزال الدهر أسير كلمته .

واذا تركنا التطور اللغوى الذى كان أساسا للثقافة فى القرن الثانى وما تلاه ، ونظرنا فى نواحي التطور الفكرى فى هذا العصر وجدنا أن اثر الثقافة الفارسية فى المجتمع الاسلامى لم يكن لفظيا أو لغويا فحسب ، بل تعدى ذلك الى نواح أخفى وأدق بحيث لا تظهر لأول وهلة كهذه الأسماء الفارسية التى أطلقت على مظاهر الحضارة المختلفة من أنواع الأطعمة والملابس والأزهار والرياض وغير ذلك ، أو كطرق الفناء وفنون الإيقاع والآلات الموسيقية بأنواعها

المختلفة ، بل نراه في المذاهب والمعتقدات المختلفة التي شاعت في القرن الثاني ، وتأثر بها كثير من العرب المثقفين .
وأهم الثقافات التي التقى بها العرب وتأثروا بها — بعد الثقافة الفارسية — الثقافة اليونانية ، فقد أحس المسلمون حاجتهم إليها بعد امتداد حركة الفتوح اذ صادفوا مللا وديانات مختلفة كانت تقف عقبة في سبيل انتشار الاسلام وتقدمه في البلاد المفتوحة . وكان أصحاب هذه الديانات من السريان والنصارى والفرس الزرادشتيين والحرانيين الصائبية وغيرهم قد هضموا التراث اليوناني وتمثلوه أحسن تمثيل ، كما مرنوا على أساليب الجدل والمحااجة لاحتاجهم بوسائل المنطق اليوناني . عندئذ أحس المسلمون حاجتهم الى وسائل هذا المنطق ، والى التدريب على أساليب الجدل للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، وإقناع المنكرين له من أصحاب الديانات الأخرى . ولهذا لم ير المتكلمون المسلمون مندوحة لهم عن التلمذة في مدرسة المنطق الهليني ، وبهذا وضع الأساس لبناء علم كلام اسلامي يعمل بأدوات هلينية . ونشطت عندئذ ترجمة كتب أرسطو والمنطق اليوناني لمواجهة هذه الحاجة العملية التي استشعرها علماء الكلام المسلمون .

وكان من نتيجة دخول المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية محيط الثقافة العربية عن طريق متكلمي النصارى وغيرهم ظهور فرق اسلامية متأثرة في منهجها وبرامجها بهذا المنطق وبهذه الفلسفة ، كالمعتزلة والأشاعرة وغيرهم . ويرى قون كريمة أن تطور الطوائف الدينية — منذ أواخر القرن الأول — والمبادئ المذهبية التي صدرت عنها قد حدثت تحت تأثير الآراء المسيحية بوجه خاص لأن التراث اليوناني الذي نقل للعرب وصل اليهم في ثوب هليني متأخر : أي في صورة المسيحية الشرقية ، ثم في صورة المانوية والزرادشتية المشبعة بالروح اليونانية . وكانت المسيحية أول نظام اتصل بالاسلام اتصالا وثيقا في دمشق أيام الحكم الأموي ، ولابد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة .

والمنافسات الدينية كانت مستمرة ، ومن المحتمل أن تكون قد نشأت عنها الطوائف الإسلامية الأولى كالمرجئة والقدرية . ولما كان فون كريمير يرى أن مذهب المعتزلة كان امتدادا لمذهب القدرية الذي نشأ في القرن الأول بحكم أن نقطة ابتدائهم كانت مذهب الاختيار وحرية الإرادة ، لهذا يقرر وجود أثر مسيحي في حركة الاعتزال . ولكن نلينو يرفض فكرة الربط بين المعتزلة والقدرية أساسا ، وإن كانت القدرية في رأيي قد هيأت الأذهان لنشوء حركة الاعتزال في البصرة ، إذ كانت منتشرة فيها بصورة واسعة ، حتى إن الخطيب البغدادي يقول : لو فتشت أهل البصرة وجدت ثلثهم قدرية ولعله يقصد بالقدرية هنا المعتزلة بحكم هذا الارتباط الذي نشير إليه . والحقيقة أن حركة الاعتزال سواء أكانت امتدادا للمرجئة أم القدرية نشأت بتأثير الفلسفة اليونانية ، وكان لها تأثير عميق في الحياة السياسية والفكرية في القرن الثاني ، وخاصة في عهد المأمون الذي كان على صلة وثيقة بها وبرجالها ، بل أراد فرضها على أهل السنة كما سنرى في حديثنا عن موقف المأمون من العقيدة . وفيما عدا التأثير الثقافي الفارسي واليوناني والثقافات الدينية المسيحية وغيرها التي نقلت عن طريق السريان والجرانيين ، نجد أن الثقافة الهندية كان لها تأثير أيضا في الحياة العقلية في القرن الثاني إذ شملت حركة الترجمة في القرنين الأول والثاني كتباً هندية في الأدب والرياضيات والالهيّات .

ونجد التأثير الهندي واضحاً في المذاهب والمعتقدات التي كانت تسود القرن الثاني ، ففكرة التناسخ التي ظهرت في معتقدات بعض الفرق إنما هي فكرة هندية حتى أن البيروني يطلق عليها اسم « علم النحلة الهندية » .

ومن ذلك كله يتبين لنا أن القرن الثاني شهد حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصيلة التي تتمثل في الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية : وقد أحرزت هذه الفروع جميعها تقدماً كبيراً في هذا القرن ، بل إن بعضها

خلق فيه خلقا جديدا كالنحو والعروض مثلا ، كما جمع التراث الشعري القديم لأول مرة ودون في ذلك العصر . وهذه الثقافة العربية قد أخذت تهضم - منذ انتهاء حركة الفتوح - ثقافات الأمم الأجنبية التي استولى العرب على بلادها لتصبح غير محدودة بزمان أو مكان أو جنس ، ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما في هذا التعبير من معان . وقد آثرنا أن ننقل صورة التطور الثقافي في هذا العصر لنبين أن المأمون الخليفة العالم كان وليد هذه الثقافات المصطرة في عصره ، وكان خير معبر عنها في أقواله ومواقفه الفكرية ، وإن كان عصره غنيا بالعلماء الأفاضل في كل فروع المعرفة ، ففيه الشافعي وابن حنبل وسفيان بن عيينة ، وفيه الواقدي صاحب السير والمغازي ، وفيه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية وأبو عمرو الشيباني اللغوي والفراء أمام العربية وقطرب النحوي والنضر بن شميل واليزيدي ويعقوب الحضرمي ، وأبو زيد الأنصاري وكثيرون غيرهم من علماء الفقه والحديث والشعر واللغة والسير والرواية ، إلى جانب الفلاسفة وأصحاب المذاهب الكلامية .

ولقد بينا من قبل نوع الدراسات التي أقبل عليها المأمون وكيف أنه برز فيها جميعا منذ صباه الباكر ، ولكننا ينبغي أن نرى أثر ذلك في حياته وسلوكه التفكيري . لقد كانت ثقافة المأمون العربية عميقة شاملة ، في الأنساب واللغات وتاريخ العرب وأشعارهم : وكان اهتمامه بالأدب كبيرا فقد كان عالما بالشعر بصيرا به ، وكان هو نفسه شاعرا منذ كان شابا صغير السن ، ويروى في ذلك أن الرشيد كان قد أراد سفرا فأمر الناس أن يتأهبوا لذلك ، وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع . فمضى الأسبوع ولم يخرج ، فاجتمعوا إلى المأمون فسألوه أن يستعلم ذلك ، ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر ، فكتب إليه المأمون :

يا خير من دبت المطي به ومن تقلى بسرجه فرس
هل غاية في المسير نعرفها أم أمرنا في المسير ملتبس

ما علم هذا الا الى ملك من نوره في الظلام نفتبس
ان سرت سار الرشاد متبعا وان تقف فالرشاد محتبس
فقرأها الرشيد فسر بها .

وقد ذكرنا من قبل أبياته التي كتبها في جارية أبيه التي أحبها
ووهبه الرشيد اياها ،

ظبي كتبت بطرفي	من الضمير اليه
قبلته من بعيد	فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد	بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكاني	حتى قدرت عليه

وهي أبيات تتميز بالرقعة المفرطة التي عرف بها تغزل المولدين
في هذا العصر ، رقة في الألفاظ وفي البحر الموسيقى القصير ، وفي
التأفية الواهنة . وهذه الرقة نلمحها في كل أشعار المأمون التي
تغزل فيها - على قلة تلك الأشعار - فقد اشتهرت أبياته التي
يقول فيها :

بعثتك مرتادا ففزت بنظرة
وأغفلتني حتى أسأت بك الفن
فناجيت من أهوى وكنت مباعدا
فياليت شعري عن دنوك ما أغنى
ورددت طرفا في محاسن وجهها
ومتعت باستسماع نغمتها اذنا
أرى أثرا منه بعينيك بيننا
لقد أخذت عينك من عينه حسنا (١)

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٣٠٠ والكامل في التاريخ ٥ : ٢٢٩ وكتاب
تعداد : ١٥٦ وقد وضع فيه «منشقا» بدلا من «مرتادا» ميون الأخبار ٤ : ١٠٥
والبيت الثالث زيادة فيه عن المصادر السابقة مع بعض تغيير في الألفاظ .

ويشير بعض الرواة الى أن المأمون قد عول في هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف :

ان تشق عيني بها فقد سعدت عين رسولى وفزت بالخبر
وكلما جاءنى الرسول لها رددت عمدا في طرفه نظرى
يظهر في وجهه محاسنها قد أثرت فيه أحسن الأثر
خذ مقلتى يا رسول عارية فانظر بها واحتكم على بصرى

وليس بعيدا أن يكون المأمون قد اطلع على قول العباس وتأثر به ، فمن المعروف أنه كان معجبا بشعره الى حد بعيد ، وكان يحفظ بعضه وربما أكثره . وبلغ من اعجاب المأمون بالعباس أنه عدم للصلاة على جثمانه قبل الكسائي وإبراهيم الموصلى - وقد ماتوا جميعا في يوم واحد - وذلك تكريما للعباس في قوله :

بأ بعيد الدار عن وطنه هائما يبكى على شجته
كلما جدد البكاء به زادت الأسقام في بدنه

ومع ذلك فاننا نرى أن أبيات المأمون أجود من ناحية صياغتها وروعة أدائها .

ومن شعر المأمون الرقيق في التغزل أيضا قوله :

لسانى كتوم لأسراركم ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا دموى كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لى دموى

وبذكر الرواة أبياتا أخرى في التغزل قالها المأمون وبلغ فيها من لطف الكناية ما حدا بالجرجاني الى اثباتها في كتابه « الكنيات » ، ذلك أن المأمون لما طلب الدخول على بوران دافعه لعدو بها فلم يندفع ، فلما زفت اليه وجدها حائضا فتركها . فلما قعد للناس من الغد دخل عليه أحمد بن يوسف الكاتب وقال : يا أمير المؤمنين هناك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة وشدة الحركة والظفر بالمركة ، فأنشده المأمون :

فارس ماض بحربته صادق بالطعن في الظلم
رام أن يدمى فريسته فاتقته من دم بسدم

وكان الشعر عند المأمون طرفة يلجأ إليها في أوقات الصفو ،
فهو يصف الشطرنج لعبته المفضلة التي كان يخلو إليها حين
لا تشغله أمور الدولة فيقول :

أرض مربعة حمراء من أرم ما بين الفين معروفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها فطنا بغير أن يأتيا فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر الى فطن حالت بمعرفة في عسكريين بلا طبل ولا علم

وحين أحمد عبد الله بن طاهر فتنة عبيد الله بن السرى في مصر
التي استشرت واستمرت وقتا طويلا كتب المأمون لعبد الله بن طاهر
يعبر عن صفو وده له ، ويعابثه بطريقة اخوانية لطيفة ، قال ،

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماء
فما أحببت من أمر فاني الدهر أهداة
وما تكره من شيء فاني لست أرضاء
لك الله على ذاك لك الله لك الله

وكان المأمون يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما ، فهو يصف
الصديق الحق بقوله :

أن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا صرف الزمان صدعك بدد شمل نفسه ليجمعك
وبعث اليه عنبسة بن أسحق عامله على الرقة يصف خروج
الأعراب بناحية سنجار وعبثهم بها ، فرد عليه المأمون بيتين يفخر
فيهما بقوته وقدرته على اخماد الثورات ، قال :

اسمعت غير كهام السمع والبصر
لا يقطع السيف الا في يد الحذر

سيصبح القوم من سيفى وضاربه
مثل الهشيم ذوته الريح بالمطر
وجلس المأمون يوما لينظر في المظالم ، فتقدمت اليه امرأة
بشكواها وقد صاغتها شعرا ، قالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشيد
ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك عميد القوم أرملة
عدى عليها فلم يترك لها سبب

وأبتز منى ضياعى بعد منعتها
ظلما وفرق منى الأهل والولد
فأطرق المأمون حينما ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد
عنى وأقرح منى القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي
وأحضري الخصم في اليوم الذى اعد

فالمجلس السبت ان يقض الجلوس لنا
ننصفك منه والا المجلس الأحد

وشبيه بهذه الحادثة ما وقع بين المأمون وأبراهيم بن المهدي
فقد اراد المأمون أن يعايشه بعد أن عفا عنه فقال له : أنت الخليفة
الأسود ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أنت مننت على بالعفو ، وقد قال
عبد بنى الحسحاس ،

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له
عند الفخار مقام الأصل والورق

ان كنت عبدا فنفسى حرة كرما
أو أسود الجلد انى أبيض الخلق

فقال المأمون : يا عم خرجك الهزل الى الجد . تم أنشأ يقول :
ليس يزرى السواد بالرجل الشـ
هم ولا بالفتى الأديب الأريب
أن يكن للسواد منك نصيب

فبياض الأخلاق . منك نصيبى
ويبدو أن المأمون كان مغرما بالعبث بعمه الذى شق عليه عصا
الطاعة ، فقد روى أن ابراهيم بن المهدي - وكان ذا حجة عظيمة -
دخل يوما على المأمون فتأمل جثته وقال : يا ابراهيم عشقت قط ؟
قال : يا أمير المؤمنين أجلك عن الجواب فى هذا ، قال : بحياتى
أصدقنى . قال : وحياتك ما خلوت من عشق قط . قال له : كذبت
وحياتك يا أبا اسحق :

وجه الذى يعشق معروف لأنه أصفر منحوف
ليس كمن تلقاه ذا جثة كأنه للذبح معلوف !

ومما يدل على سرعة بديهة المأمون أيضا ما روى عنه حين أهدى
إليه عبد الله بن طاهر قينة وأمرها أن تنشد المأمون شعرا صنع
عبد الله يمدح به نفسه ، فلما جلست فى مجلس المأمون أنشأت
تقول كما أمرها عبد الله :

أغمدى سيفى وقولى جم يا سيف طويلا
قد فتحت الشرق والغرب ب وأمنت السبيلا

غلبا فرغت قال لها المأمون : لا تقطعى صوتك وقولى
ما أقول لك :

بنا نلت الذى نلت فدع عنك الفضولا
أنت لولا نحن فى الشبكة لم تسو فتिला

ثم قال : ارجعى اليه فأنشديه هذا فان شاء بعد فليردك .
وكان المأمون مشغوبا بالحكمة يصوغها شعرا ونثرا ، وهو
يحاول أن تتضمن فكرة جديدة ، فمن ذلك قوله :

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد
لكثرة مال أو علو مكان

لما ندب الله العباد لشكره
فقال أشكروا لى أيها الثقلان

ولم يكن المأمون يعالج الشعر ترفا وتزجية للوقت ، بل كان يعبر به عن نفسه - كما رأينا - وعن أحاسيسه ، ويحاول الرد على الذين يجابهونه بأشعارهم . يضاف الى ذلك شدة بصره بالشعر الجيد والردىء : وصدق حكمه عليه ، وفهمه لصناعته . أنشده عمارة بن عقيل قصيدة يمدحه بها كانت فى مائة بيت ، فكان عمارة يتبدى بصادر البيت فيبادره المأمون الى قافيته ، فقال عمارة : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط ، قال المأمون : هكذا ينبغى أن يكون ، ثم أقبل على عمارة فقال : أما بلغك أن عمر ابن أبى ربيعة أنشد عبد الله بن العباس قصيدته التى يقول فيها : (تشط غدا دار جيراننا) فقال ابن العباس : (وللدار بعد غد أبعد) حتى أنشده القصيدة يقفها ابن العباس ؟ ثم قال : أنا ابن ذاك .

ثم قابل الشاعر عبد الله بن أبى السمط عمارة بن عقيل فقال له : ان المأمون لا يبصر الشعر ، قال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ، فوالله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره ، قال عبد الله : انى أنشدته بيتا أجدت فيه قلم أره تحرك له ، قال عمارة : وما الذى أنشدته ؟ قال : أنشدته :

أضحى امام الهدى المأمون مشتغلا

بالدين والناس بالدنيا مشاغلا

قال عمارة : انك والله ما صنعت شيئا ، وهل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها ، فى يدها سبحتها ، فمن القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ، هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن الوليد ،

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
وحين تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل مدحه محمد
ابن حازم الباهلي بقوله :

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا ابن هارون قد ظفر ت ولكن بينت من ؟ !
فلما نمت هذا الشعر للمأمون لم تغب عنه سخرية الشاعر
فقال : والله ما ندرى خيرا أراد أم شرا .

ومما يدل على احاطة المأمون الواسعة بانتاج الشعراء في عصره :
سؤاله الدائم عن هذا الشاعر أو ذاك ، واستجاداته لقصائد شعراء
مختلفين ، فهو يثنى على شعر للعباس بن الأحنف ، ولأبي نواس ،
ولمسلم بن الوليد ، وللحسين بن الضحاك ، ولعلي بن جبلة ،
ولأبي الشيعي ، وقد أفرط في استحسان قصيدة لأبي الشيعي
— كما يقول ابن المعتز — تدل على ذوقه الأدبي الرفيع .

وكان المأمون كلما ولي رجلا سأل : أتروى شيئا من الشعر ؟
وكلما سمع شعرا عذبا استجاده ، دعا بدواة فكتبه .
وأخبار المأمون تدل جميعا على أنه كان يعقد مجالس تنشد
فيها الأشعار ، ويتناقش الناس حولها ، مما يشير الى اهتمامه
العظيم بالشعر وروايته . وفي أحد هذه المجالس كان عند المأمون
جماعة من قريش فسألهم : أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبير
التي يعتذر فيها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مصعب
ابن عبد الله الزبيرى : أنا يا أمير المؤمنين وأنشده القصيدة التي
مطلعها :

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
فأمر له بثلاثين ألف درهم وقال : ليكن القرشى مثلك . وهكذا
كان المأمون مع الشعراء أجود من السحاب الحافل والريح العاصف
كما وصفه أحد عماله . ومما يروى في ذلك أن شاعرا بصريا من

تميم كان معروفاً بالظرف فأغراه وإلى البصرة بأن يتوجه إلى مدح المأمون - وكان وقتها في الشام يتهياً لغزو الروم - وفي الطريق قابل الشاعر فارساً كهلاً على بغل فاره فسلم عليه وسأله عن نسبه وقصده : فقال الرجل : قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أئدى راحة .. قال ، فما الذي قصدته به ؟ قال : شعر طيب يلذ على الأفواه ، قال الفارس : فأنشدنيه ، ففضب الشاعر وقال : يا ركيك أخبرتك أنني قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح خبرته ، تقول أنشدنيه . قال : وما الذي تأمل فيه ؟ فقال الشاعر : أن كان على ما ذكر لى عنه فألف دينار ، قال الفارس : فانا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً ، فأنشده قوله :

مأمون يا ذا المنن الشريفة

وصاحب المرتبة المنيفة

وقائد الكتيبة الكثيفة

هل لك في أرجوزة ظريفة

أظرف من فقه أبي حنيفة .. الخ

وما أن انتهى الشاعر من أرجوزته حتى رأى زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فارتاع الرجل ، فقال له المأمون : لا بأس عليك أي أخي ، فقال الشاعر ، يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ، أتعرف لغات العرب ؟ قال : أي لعمر الله . قال : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال : هذه حمير . قال : لعننا الله ولعن من استعمل هذه اللفة بعد اليوم . فضحك المأمون وعلم ما أراد ، والتفت إلى خادم إلى جانبه وقال : أعطه ما معك فأخرج له كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار فأخذها الشاعر ومضى (١) .

(١) كتاب بغداد : ١٥٠ ويقصد الشاعر أنه أراد بكلمة (ركيك) التي وصف

بها المأمون لفظ (رقيق) ولكنه نطقها بلفظ حمير !

وقال المأمون يوما لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح والهجاء والمراثى ، ولك بكل بيت كورة ! وقد تكون فى هذه الرواية مبالغة ، ولكنها تدل على أى حال على اهتمام المأمون العظيم بالشعر واستعداده للاثابة الجزيلة عليه .

وعلى الرغم من تقبل المأمون لمديح كثير من الشعراء الأكابر والأصاغر فى عصره : منذ كان طفلا فى عهد أبيه الرشيد حتى صار حاكما على خراسان ثم خليفة يقيم فى مرو ثم فى بغداد ، إلا أن صلته ببعض الشعراء الكبار فى عصره كانت تحكمها ظروف نفسية أو تاريخية معينة . مثال ذلك دعبل الخزاعى شاعر الشيعة فقد كانت صلته بالمأمون تحكمها علاقة المأمون بالشيعة ، فحينما صافاهم مدحه دعبل كما رأينا ، فلما عاد الى العباسيين ، هجاه دعبل هجاء مرا كما فى قوله :

انى من القوم الذين سيقوهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعـد
شادوا بذكرك بعد طول خمولة

واستنفذوك من الحضيض الأوهـد
بل كان دعبل يهجو العباسيين جميعا - كما رأينا فى أبياته
التي رثى بها على بن موسى الرضا ، وكما فى أبياته التي يهجو فيها
ابراهيم بن المهدي عم المأمون لما تولى الخلافة العباسية فترة من
الزمان فى أثناء الاضطراب الذى حدث ببغداد ، فهو يقول فيه :

نفر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا اليه كل أطيش مائق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن ورائة للمـارق
انى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وعلى الرغم من هجاء دعبل للمأمون ، إلا أن المأمون كان معجبا
بشعره كل الإعجاب ، حتى بهجائه لعمه وله وللعباسيين جميعا ،
فقد كان ينظر الى الشعر نظرة موضوعية فلا يملك إلا الإعجاب

بحس الشاعر المرفه والعالم البصير ، وقد أبدى هذا الراى فى أكثر من مناسبة . ولما دخل المأمون بغداد أحضر دعبلأ بعد أن أعطاه الأمان ، فعاتبه على هجائه له وطلب إليه أن ينشده قصيدته التائية فاستعفاه ، فقال ، لا بأس عليك وقد رويتها : وانما أحببت أن أسمعها منك ، فأنشدها دعبلأ ؛ فلما انتهى الى قوله :

ألم تر أنى مذ ثلاثين حجأة أروح وأغدو دائم الحشرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
إذا وتروا مدوا الى أهل وترهم اكفا عن الأوتار منقبضات
وآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد غلظ القصصرات
بنات زياد فى القصور مصونة وبنات رسول الله فى الفوات
بكى المأمون وجدد له الأمان وأحسن له الصلة .

أما علاقة الحسين بن الضحاك بالمأمون فمرد سوئها أن الحسين كان نديم الأمين فكان يتورط فى مديحه الى حد هجاء المأمون . ولما قدم المأمون الى بغداد طلب أن يسمى له قوم من أهل الأدب يجالسونه ، فذكر له جماعة منهم الحسين بن الضحاك فلما بلغ اسمه قال : أليس الذى يقول فى المخلوع :

هلا بقيت لسد فافتنا فينا وكان لفيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لى به لا يرانى والله الا فى الطريق .

واذا صحت هذه الرواية فان المأمون لم يذكر الا أخف شعر الحسين بن الضحاك الذى يعرض به فيه ، ذلك أن مقتل الأمين كان صدمة عنيفة على الحسين فبالغ فى رثائه والبكاء عليه ، حتى أن أبا الفرج الأصفهانى يقول : « وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ، ويدفعه ويقول انه مستتر » . ومما قاله فى رثاء الأمين وهجاء المأمون :

أطل حزنا وابك الامام محمدا بحزن وان خفت الحسام المهندا
فلا تمت الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك فيها مبدا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال فى الدنيا طريدا مشردا

وقال أيضا :

ومما شجا قلبي ويسكب عبرتي
محارم من آل الرسول استحلت
ومهتوكة بالخلد عنها سـجـوفها
كعاب كقرن الشمس حين تبـدـدت
وسرب طباء من ذؤابة هاشم
هتفن بدعوى خير حي وميت
أرد يدا منى اذا ما ذكرته
على كبد حـرى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغيطة
ولا بلغت آمـالهم ما تمنى

ويذكر ابن الأثير أن المأمون قد آلمه هذه الأبيات فأحضر الحسين
وقال له : هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت ؟ قال :
لا ، قال ، فما قولك الأبيات . . فقال : يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني
وروعة فاجأتني ، ونعمة سلبتها بعد أن غمرتني ، واحسان شكرته
فأنطقني ، وسيد فقدته فأقلقني ، فان عاقبت فبحقك ، وان غفرت
فبفضلك . فدمعت عين المأمون وقال : قد عفوت عنك : وأمرت
بإدراج أرزاقك عليك ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي عن استخدامك .
ولكن الحسين بن الضحاك لم يسلم بهذه النتيجة فيما يبدو ،
فحاول أن يسترضى المأمون بشتى الطرق ، ووسط في ذلك عمرو
ابن مسعدة ، كما يتضح لنا من قصيدته التي كتبها اليه وقال فيها :

أنت طودى من بين هذى الهضاب
وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قوتى وحياتى
ولسانى وأنت ظفـرى ونابى
أترانى أنسى أياديك البيض
اذا اسود نائل الأصحاب

أين عطف الكرام في مآقط الحـ
 جة يحمون حـوزة الآداب
 أين أخلاقك الرضـية حالت
 في أم أين رقـصة الكتاب
 أن عطف الأديب في بلد الفـر
 بة جود عـلى ذوى الألبـاب
 أنا في ذمـة السحاب وأظمأ
 أن هذا لوصمة في السحاب
 قم الى سـيد البرية عنى
 قومة تستجر حسن خطـاب
 وكتب الى المأمون نفسه قصيدته التى مطلعها :
 أجرنى فانى قد ظمئت الى الوعد

متى تنجز الوعد المؤكد بالمعهد
 ويبدو أن الحسين انقطع عن قول الشعر فيما يجيده من الخمر
 والفرز والملاهى طوال عهد المأمون خشية أن يأخذه بذلك وهو
 غاضب عليه . والدليل على هذا اشارته التى يقول فيها عن شعره
 في احدى القصائد (بضاعة أكسدها المأمون) . ويبدو أن المأمون
 رضى أخيرا عن الحسين فأراد استقدمه - وإن كان قد ظل يصله
 وهو مقيم بعيدا عنه في البصرة - فقد ذكر ابن المعتز أن أحد
 البصريين قدم على المأمون فقال له : كيف ظريف شعرائكم وواحد
 مصركم ؟ فلما أنكر البصرى معرفته به قال المأمون : ذاك الحسين
 ابن الضحاك ، أليس هو الذى يقول :

راى الله عبد الله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبـد
 ما قال في أحد من شعراء زماننا أبلغ من بيته هذا : فاكـتب
 اليه فاستقدمه ، فلما أعلمه البصرى بمرضه ، كتب المأمون الى
 عامل الخراج على البصرة ليعطى الحسين ثلاثين ألف درهم .
 وشاعر ثالث من أكبر شعراء ذلك العصر ، لم تكن صلته بالمأمون

قوية . على الرغم من انه نال شهرة واسعة في عهد المعتصم ، وما نظن انه كان مجهول القدر في أيام المأمون ، ونقصسد به أبا تمام . لقد ولد أبو تمام عام ١٧٢ هـ على أصح الأقوال فهو قريب اذن من عمر المأمون ، أى أنه صار شاعرا ناضجا معروفا حين أصبح المأمون خليفة : أو على الأقل حين استقر له الأمر في بغداد عام ٢٠٤ هـ . يقول عمر فروخ في دراسته عن أبى تمام ان أبا تمام قد سعى ليتصل بالمأمون وهو يومذاك في الشام — وكان ذلك نحو عام ٢١٥ هـ كما نعلم من مصاحبتنا لحكم المأمون في بغداد — فلما دخل عليه مدحه ، ولكنه لم يظفر منه بما يؤمل ولا بأدنى مما يؤمل ، بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد ، فان المأمون كان قد انقلب على آل على فأوغر صدره أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرض بينى العباس في قصيدته التى مدحه بها وهى التى مطلعها ،

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الامام
ولكن الدكتور البهيتى يرى أن أبا تمام مدح المأمون بقصيدتين
اخرين الأولى :

كشف الفطاء فأوقدى أو اخمدى

لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى

والأخرى :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر

وغدا الثرى فى حليته يتكسر

ومع ذلك لا نرى المأمون قد قرب اليه أبا تمام أو أدخله فى بطانته من الشعراء ، مع أن ذكر أبى تمام يتردد مع شعراء أقل منه شأنًا كانوا يترددون كثيرا على المأمون مثل عمارة بن عقيل ودعبل الخزاعى . ويبدو لى أن السبب الذى ذكره عمر فروخ ليس مقنعا تماما ، أو على الأقل ليس كل ما يقال فى هذه القطيعة بين المأمون وأبى تمام . بل يجب أن نضيف اليه أن وجود أبى تمام فى بطانة أبى دلف العجلي وتردده عليه — كما تشير الروايات المختلفة — كان

من الأسباب التي جعلت المأمون يجفوه . ودليلنا على ذلك موقف المأمون من علي بن جبلة ، فقد رفض مدحه له لاختصاصه بأبي دلف ومدحه الرائع له .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا أخبار المأمون مع شعراء عصره ، أو آراءه في الشعراء السابقين الذين كانوا موضع نقاش دائم بينه وبين مجالسيه من أهل الأدب . وغاية ما يقال في ذلك أن وجود المأمون في الخلافة كان دفعة قوية للشعر في أيامه لبصره واهتمامه به ، وأثابته للشعراء . ونستطيع أن نجد أخبارا كثيرة للمأمون — فيما عدا من ذكرنا من الشعراء — مع أبي العتاهية وأبي نزار الضرير وأبي العميث وجحشويه وخالد القناس والعتابي وإبراهيم ابن المهدي — الذي كتب في المأمون مدائح رائعة — ومن إليهم . أما أبو نواس فقد مات قبل تولى المأمون الخلافة ، وكان قد يئس من الأمين فقال في سجنه :

أما الأمين فلست أرجو دفعه غنى فمن لى اليوم بالمأمون
ويقال ان المأمون لما بلغه ذلك قال : والله لئن لحقته لأغنيته
غنى لا يؤمله . ولا عجب في ذلك فقد كان المأمون يعجب بشعر
أبي نواس إعجابا شديدا حتى ليفضله على كثير من الشعراء في
القديم والحديث كما يخبرنا ابن طيفور .

وكان المأمون يعجب بالبلاغة أينما كانت سواء في شعر أم نثر .
روى أحمد بن يوسف قال : دخلت على المأمون وفي يده كتاب وهو
يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعد فيه بصره ويصوبه ، فالتفت
إلى وقد لحظني في أثناء قراءته للكتاب ، فقال : أراك منكرا مني
ما تراه . قلت : نعم وقى الله أمير المؤمنين المخاوف . قال ، لا مكروه
ان شاء الله : ولكني قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد
يقوله عن البلاغة ، فاني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة
والقرب من البفية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى .
وما كنت اتوهم أحدا يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب
من عمرو بن مسعدة إلينا فاذا فيه : كتابي إلى أمير المؤمنين ومن

قبلى من الأجناد فى الطاعة والانقياد . على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياتهم واختلت أحوالهم .. ألا ترى يا أحمد الى ادماجه فى الأجناد واعفائه سلطانه من الاكثار ؟

لهذا لم يكن غريبا أن يحف بالمأمون أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، الذين كان لهم مكان فى تاريخ النثر العربى مثل أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة والفضل والحسن ابنى سهل ، بل اننا نعد طاهر ابن الحسين من أعظم الكتاب فى ذلك العصر ، ويكفى أنه صاحب الرسالة المشهورة التى كتبها لابنه عبد الله عند خروجه لحرب نصر بن شيث ، والتى وصفها المأمون بقوله : ما أبقى أبو الطيب (طاهر بن الحسين) شيئا من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى والسياسة ، واصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقديم الخلافة ، الا وقد أحكمه وأوصى به : ولهذا أمر المأمون أن يكتب نص الرسالة ويوزع على جميع العمال فى مملكته . ولم يكن الأدب وحده نصيب المأمون من ثقافة عصره الواسعة ، بل كان ضليعا فى الفقه أيضا ، بصيرا بالسنن وفرائض الدين ، بل كانت له مشاركة فى فروع المعرفة كلها التى كانت سائدة فى عصره ، يقول عنه أبو حنيفة الدينورى انه نجم ولد العباس فى العلم والحكمة ، وانه أخذ من جميع العلوم بقسط ، وضرب فيها بسهم . ويقول عنه ابن الطقطقى انه من أفاضل الخلفاء والعلماء والحكماء ، ويصفه جمال الدين القاسمى بقوله : « عرف الخليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء ، وشففه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير فى أولاد الملوك من تعشق العلوم الحكيمية على حدائث سنه ، وأقام بين العلماء لمناظرتهم فى جميع أنواع العلوم مثله ، فما دخل عليه مرة الا وألفى فى مجلس من العلماء والأدباء . وقد ورث ذلك عن ابيه الرشيد ، فقد كان العلماء والأدباء لا يفارقونه فى حضر ولا سفر .. وانما قرب العلماء الى الرشيد ما بنفسه من الميل الى الأدب والحرص على احراز العلوم .. وكان من الفضل بحيث أن مادبه لم تخل قط من عالم أو اديب أو شاعر . وبلغ به التواضع

لهم أن معاوية المحدث الضرير كان إذا جلس الى طعامه قام الرشيد من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء .

ويقول « ول ديورانت » ان تشجيع المأمون للفنون والعلوم والآداب والفلسفة كان ذا أثر أعظم مما كان في عهد أبيه ، فقد أرسل البعوث الى القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب الى اللغة العربية ، وأنشأ مجمعا علميا في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر ، وكان الأطباء والفقهاء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون بعطاياه . هذه بعض أقوال الباحثين من قدامى ومحدثين عن علم المأمون وأثره في تشجيع العلوم والآداب في عصره ، فما حقيقة ذلك ؟ يذكر القفطى ان المأمون رأى في منامه كأن رجلا أبيض مشربا بحمرة ، واسع الجبين ، مقرون الحاجبين ، أطلع الرأس ، أشهل العينين ، حسن السمائل جالسا على سرير . قال المأمون : وكأنى بين يديه وقد ملئت له هيبة ، فقلت له : من أنت ؟ فقال ، أنا أرسطوطاليس ، فسررت به وقلت : أيها الحكيم أسألك . قال : سل ، قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن في العقل ، قلت : ثم ماذا ؟ ، قال : ما حسن في الشرع . فلما استيقظ المأمون من منامه حدثته نفسه ، وحثته همته على تطلب كتب أرسطوطاليس فلم يجد شيئا منها في بلاد الاسلام . . وتمضى القصة الى نهايتها لتؤكد أن المأمون بذل كل ما في وسعه لاستحضار الكتب اليونانية وترجمتها بسبب هذا الحلم . ويعلق « روزنتال » على ذلك بقوله ، ان بعض حلقات المفكرين المسلمين كانت ترى أن الهنود هم واضعوا العلوم جميعا ، وقد نسبوا الى المنصور أنه أوحى اليه في حلم ما شدد من عزمه في نقل العلوم الفلكية والرياضية ، والحصول على ترجمة لكتاب كليلة ودمثة من بلاد الهند . كما ان بعض الحلقات الأخرى أرادت أن تبين فضل اليونان على الحضارة العربية فأوحت الى المأمون هذا الحلم . ويبدو أن نظرية العلماء المسلمين في أصل العلوم ونشأتها

لم تكن تميل الى الأخذ بنظرية التطور التدريجى ، بل هى تخضعها للسعى والجهـد العقلى عند الانسان ، أو تجعلها نتيجة وحى سماوى .

. والحقيقة ان المأمون قد اتصل بالفلسفة اتصالا وثيقا منذ كان شابا يافعا ، فقد عشق بفطرته العلوم العقلية ومال اليها : ويقول أبو حنيفة الدينورى ان أستاذه فى الأديان والمقالات أبو الهذيل العلاف . ثم اتصل بعلوم عصره ومعارفها المختلفة ، فشجع الحركة العلمية تشجيعا قويا بما أشرب قلبه من حب العلم ، وكان تشجيعه لكل العلوم على قدم المساواة ، ومن هنا جاء الازدهار العظيم فى حياة الترجمة فى عصره . على أننا ينبغى أن نقرر أن المأمون لم يبدأ الترجمة ولم يكن أول خليفة أعان على نقل العلوم المختلفة وشجعها ، ولعلنا أشرنا الى ذلك فى أول هذا الفصل ، فقد بدأت الترجمة منذ العصر الأموى ، ويشير بعض الباحثين الى أهمية الدور الذى قام به خالد بن يزيد بن معاوية الذى لقب بالحكيم أو الفيلسوف ، وان كان بعض الدارسين يقللون من أهمية هذا الدور ويكادون ينكرونه . ويقول فى ذلك « ألدو ميللى » : لم يكن هناك علم عربى حقيقى قبل عصر العباسيين ، بغض النظر عن بعض شواذ واستثناءات ، وفى القرن الأول من خلافة العباسيين كان المترجمون من الاغريقية الى السريانية ومن السريانية الى العربية هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من النشاط العلمى ، ولا سيما أولئك المترجمون الذين كانوا من المسيحيين المنشقين : مثل ثيوفيل بن توما الرهاوى الذى كان فلكى الخليفة المهدى وقد ترجم من السريانية كتابا لجالينوس ، ومثل جرجيس بن جبريل بن بختيشوع الذى عمل عند المنصور وهو أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الداعى الشهرة ، ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع ، وأبو يحيى البطريق وابنه أبو زكريا يحيى بن البطريق . وقد عدد ميللى الترجمات التى قام بها هؤلاء المترجمون جميعا . وهناك علماء آخرون من الفرس قاموا بدور مهم فى الترجمة قبل عصر المأمون ، مثل يعقوب بن طارق ،

ومحمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان أبوه فلكيا مشهورا وقد كتب منظومة فى الفلك . ويقال انه أول من صنع الاسطرلاب من المسلمين . وهذان العالمان بالذات كانت لهما علاقات، علمية بالهند اذ كانا يعرفان قسما من « السندهند » وهو كتاب فلكى مشهور . ونستطيع أن نعد أيضا من المترجمين الفضل بن نوبخت رئيس مكتبة هارون الرشيد . ومن المترجمين من اليهودية الى العربية عبد الله بن المقفع الذى ترجم بعض الكتب فى المنطق والطب ، ولكنه اشتهر على الأخص بترجمة كتاب خدينامة أى سير ملوك العجم كما سماه ، وكذلك كتاب كليله ودمنة ، وقام ابنه محمد بدور كبير فى نقل الكتب الفلسفية اليونانية .

وهذا النشاط فى حركة الترجمة ونقل العلوم المختلفة لم يساعد عليه الخلفاء العباسيون فحسب ، بل شدت من أزره كثيرا الأسر القوية التى كانت تتنافس بينها فى هذا المضمار ، وأهم هذه الأسر البرامكة ، حتى أن بعض الباحثين يقولون أن الرشيد حاول أن يتشبه بهم فى تشجيع العلوم وترجمتها .

فكان المأمون اذن قد واصل جهود سابقيه حين دعا المترجمين الى العمل وأظلم برعايته وأجرى عليهم الأرزاق ، ولكنه أضاف الى ذلك تأسيس بيت الحكمة فى بغداد الذى زوده بمكتبة ومرصد فلكى ، كما أمر فلكييه بعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذى قبل كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة . ومن الراجح جدا أن يكون محمد ابن موسى الخوارزمى العالم الذائع الصيت قد اشترك فى قياس الدرجتين المذكورتين ، كما شارك فى رسم خريطة العالم ، واشترك فى قياس المساحات الأرضية والفلكية خالد بن عبد الملك الروزى ، وسند بن على ، وعلى بن عيسى الاسطرلابى ، ويحيى بن أبى منصور - الذى كان قائما على المرصد الذى أسس بأمر المأمون - وغيرهم . وقد قامت هذه الجماعة من العلماء بعملها فى الشماسية ببغداد ، وجبل قاسيون بدمشق ،

وذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة ومائتين .
ومن الذين قاموا بدور هام في الترجمة أيام المأمون حنين بن اسحق
العبادي الطبيب النسطوري الذي كان يتنقل بين بغداد وسورية
وفلسطين والاسكندرية ليصيب كل ما وصل اليه العالم القديم
من علم بالطب ، وليزداد علما باليونانية . ولحنين بالإضافة الى
جهده فيما نقله من المؤلفات الطبية الفضل في ترجمة كتب المقولات
والطبيعية وعلم الأخلاق لأرسطو ، والجمهورية والقوانين ومحاورة
طيمائوس لأفلاطون ، وان كانت هذه الكتب لم تترجم كاملة في جميع
الأحوال .

ومن الذين قاموا بجهد في الترجمة أيضا أيام المأمون يحيى
ابن ماسويه الذي كان يشرف على بيت الحكمة في بغداد ، وكان
يؤلف بالسريانية والعربية ، كما كان متمكنا من اليونانية . ويقول
« أولرى » ان كتابه الطبى عن الحميات اشتهر زمنا طويلا ، وترجم
فيما بعد الى اللاتينية والعبرية .

ومن الشخصيات العلمية الأخرى في عصر المأمون ميخائيل
ابن ماسويه طبيبه الخاص ، وكان المأمون يكرمه غاية الأكرام
— كما يقول القفطى — ويشق بعلمه فلا يشرب دواء الا من تركيبه .
وعبد الله بن سهل بن نوبخت منجم المأمون ، وكان قديرا في
صناعته ، وموضعا لثقة المأمون . وكما قام البرامكة بدور مهم في
تشجيع حركة الترجمة أيام الرشيد ، كذلك فعل بنو شاعر المنجم
أيام المأمون ، فقد أنفذوا حنين بن اسحق وغيره الى بلاد الروم
فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات . ويقال انهم كانوا
يرزقون جماعة من المترجمين منهم حنين بن اسحق وحبيش
ابن الحسن ، وثابت بن قرة ، وغيرهم نحو خمسمائة دينار كل
شهر . وقد جمع أحمد فريد رفاعى في كتابه (عصر المأمون) أسماء
العلماء والمترجمين في ذلك العصر ، كما كتب جورجى زيدان في
كتابته (تاريخ التمدن الاسلامى) ثبنا بالكتب التى ترجمت عن
اليونانية والفارسية والهندية والنبطية والعبرانية واللاتينية

والقبطية في الفلسفة والأدب والطب والرياضيات والفلك والأخبار والسير ومختلف فروع المعرفة الانسانية ، فلا حاجة بنا الى استقصاء ذلك مرة أخرى . غير أننا نتساءل عن طبيعة بيت الحكمة : هل كان مجرد مكتبة يحاول المأمون استحضار الكتب اليها من جهات متفرقة وخاصة من آسيا الصغرى ، أو هو مركز علمي يفد اليه الباحثون وينقطعون فيه الى دراساتهم ، والمترجمون الى ترجماتهم ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك بدليل ما يقوله القفطى عن محمد بن موسى الخوارزمي مثلا أنه كان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة . وأغلب المصادر التي بين أيدينا تؤكد أن بيت الحكمة قد أنشئ أيام المأمون ، ولكننا نرى أنه أسس في أيام الرشيد بدليل ما يقوله القفطى عن الفضل بن نوبخت أن الرشيد ولاه القيام بخزانة كتب الحكمة ، وكان ينقل من الفارسي الى العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية . وكان « دى بور » الباحث الوحيد الذي أيد وجود بيت الحكمة في عصر الرشيد . ويبدو لى أن بيت الحكمة كان في عصر الرشيد مجرد خزانة كتب فأضاف اليه المأمون صفته الأخرى كمركز علمي ينقطع اليه الباحثون .

لقد ازدهرت اذن الحركة العلمية ترجمة وتأليفا أيام المأمون ، وفي عهده استهل أبو يوسف يعقوب الكندي فيلسوف العرب نشاطه الفكري . ويقول « بروكلمن » عنه أنه لم يقتصر على تعريف مواطنيه بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك الى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة .

ولم يكن نشاط المأمون العلمى مقتصرًا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة ، بل كان يسعى الى احضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم . ولعل أصدق ما يدل على ذلك الحاج المأمون في طلب العالم الهندسى ليون الذى كان قد دفن نفسه في أحياء القسطنطينية الفقيرة ، وأخذ يعيش عيشاً

رقيقا بتعليم الناس ، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى
 العرب ، فأظهر في إحدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسى ،
 فلما سئل عن معلمه دل عليه ، فأرسل اليه المأمون كتابا يدعوه
 للحضور الى بغداد ، فعرض ليون الرسالة على الجهات الرسمية
 في بلاد : وعلم الامبراطور بها فمنعه من السفر ، وكانت رسالة
 المأمون سببا في شهرة هذا العالم وتنبه بلاده الى عبقريته ، وظل
 المأمون يرأسه ليسأله عن أمور هندسية وفلكية . ولم يكن المأمون
 بعيدا عن الإحاطة ببعض المسائل الهندسية فقد كان يقول : لا يعرف
 الهندسة من لم يقرأ كتاب اقليدس ، وهو من الهندسة بمنزلة
 حروف اب ت ث الكلام والكتابة . ولا يقول مثل هذا الكلام الا من
 قرأ كتاب اقليدس وعرف مكانته ، والى جانب ثقافة المأمون العامة
 في العلوم المختلفة ، كان بارزا في المسائل الفقهية بروزا واضحا ،
 وقد أجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم
 الكلام ، كما أنه تلقى دروسا كثيرة في الحديث وعلوم القرآن . ويبدو
 أنه كان مهتما بالدراسة الفقهية ليشبع نهمه في الجدل والمناظرة .
 ولكى يشبع ميوله العقلية جمع الى بلاطه من مختلف أنحاء مملكته
 الفلاسفة والمفكرين والفقهاء ، وكان يجلس للمناظرة في الفقه يوم
 الثلاثاء - كما يقول قاضيه يحيى بن أكرم - الذى أعطانا صورة
 واضحة لمجالس المأمون قال : اذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر
 أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم انزعوا أخفافكم ،
 ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا
 الوضوء ، ومن خفه ضيق فليزرعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته
 فليضعها . فاذا فرغوا أتوا بالجامر فيخروا وطيبوا ثم خرجوا
 فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظروهم أحسن مناظرة وأنصفها
 وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول
 الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

ومن أعجب ما يروى عن فقه المأمون أن قاضى بغداد بشر
 ابن الوليد الكندى ضرب رجلا اتهم بأنه شتم أبا بكر وعمر : وأطافه

على جمل ، فلما قدم المأمون أحضر الفقهاء ، فقال : انى قد نظرت
 فى قضيتك يا بتر فوجدتك قد أخطأت بهذا خمس عشرة خطيئة ،
 ثم أقبل على الفقهاء فقال : افيكم من وقف على هذا ؟ قالوا ،
 وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا بشر ، أقتت الحد على هذا
 الرجل ؟ قال : بستم أبى بكر وعمر ، قال : حضرتك خصومه ؟ قال :
 لا ، قال : فوكلك ؟ قال : لا ، قال : فللحاكم أن يقيم حد القذف
 بغير حضور خصم ؟ قال : لا ، قال : كنت تأمن أن يهب بعض
 القوم حصته فيبطل الحد ؟ قال : لا ، قال : فأتهما كافرتان
 أو مسلمتان ؟ قال : بل كافرتان ، قال : فيقام فى الكافرة حد
 المسلمة ؟ قال : لا ، قال : فهك فعلت هذا بما يجب لأبى بكر
 وعمر من الحق : أفشهد عندك شاهدا عدل ؟ قال : قد زكى
 أحدهما ، قال : فيقام الحد بغير شاهدين عدلين ؟ قال : لا ، قال :
 ثم أقتت الحد فى رمضان ، فالمحدود تقام فى شهر رمضان ؟ قال :
 لا ، قال : ثم جلدته وهو قائم ، فالمحدود قيام ؟ قال : لا ، قال :
 ثم شبحته (١) من العقابين ، فالمحدود يشبح ؟ قال : لا ، قال :
 ثم جلدته وهو عريان فالمحدود يعرى ؟ قال : لا ، قال : ثم حملته
 على جمل فأطفته فالمحدود يطاف به ؟ قال : لا ، قال : ثم حبسته
 بعد أن أقتت عليه الحد ، فالمحدود يحبس بعد الحد ؟ قال : لا .
 قال : لا يرانى الله أبوء باتمك وأشارك فى جرمك ، خذوا عنه
 ثيابه وأحضروا المحدود ليأخذ بحقه منه ، فقال له من حضر من
 الفقهاء : الحمد لله الذى جعلك عاملا بحقوقه ، عارفا بأحكامه .
 تقول الحق وتعمل به ، وتأمر بالعدل . وتتؤدب من رغب عنه . أن
 هذا يا أمير المؤمنين حاكم أحد برأيه فأخطأ ، فلا تفضح به الحكم
 وتهتك به القضاة ، فأمر به فحبس فى داره حتى مات .

ومما يشير الى تفقه المأمون أيضا أنه كان جالسا للناس فجاءت
 امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى وخلف ستمائة دينار ،

(١) أى فرق بين يديه ورجليه ومدته كالصلوب .

أعطوني ديناراً وقالوا هذا نصيبك . فحسب المأمون ثم كسر الفريضة
ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء الذين كانوا في مجلسه :
كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الرجل خلف ابنتين ،
قالت : نعم ، قال : فلهما الثلثان أربعمائة ، وخلف والدة ،
فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ،
وبالله لك اثنا عشر أخاً قالت : نعم قال : أصابهم ديناران ديناران
وأصابك دينار !

أما رواية المأمون للحديث فكانت واسعة وموثوقاً بها ، فقد
حدث عن هيثم بن بشر عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا تزوج الرجل المرأة لدينها
وجمالها كان فيه سداد من عوز) . ومن رواياته أيضاً عن هيثم
ابن بشر عن ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن
أبي بردة بن دينار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من
ذبح قبل أن يصلى فانما هو لحم قدمه ، ومن ذبح بعد أن يصلى
فقد أصاب السنة) . وقد عني السيوطي بجمع بعض الأحاديث
التي رواها المأمون في ترجمته لسيرته .

وكان المأمون يثيب رجال الحديث إذا سمع منهم حديثاً لأول
مرة . من ذلك ما روى عن هذبة بن خالد أنه قال : حدثني حماد
ابن سلمة عن ثابت البناني عن أنس ، قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول (من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر)
فأمر له المأمون بألف دينار .

وقد عرف الناس عن المأمون حبه للحديث واثابته لحفاظه
فتعرضوا له ، ويروى أن رجلاً تقدم إليه فقال : يا أمير المؤمنين
صاحب حديث منقطع . فلم يأخذ المأمون عنه حتى امتحنه في أبواب
الحديث فلم يجده يحفظ شيئاً ، فنظر إلى أصحابه وقال : يطلب
أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول : أنا من أصحاب الحديث ،
أعطوه ثلاثة دراهم !

وكان المأمون في سعيه لتثقيف نفسه - كما رأينا - لا يفرق بين علم وآخر ، وكانت غايته من كل علم ليست الوقوف على نهايته فهذا شيء لا يدرك ، وإنما التماس ما لا يسع جهله . وهذا ما أقر به المأمون نفسه حين تناظر مع سهل بن هارون في معنى العلم وما ينبغي تحصيله وما لا ينبغي . قال سهل بن هارون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال ، فقال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشيء علما وليس بعلم . فان كان هذا أردت فوجه الذي ذكرت . ولو قلت أيضا : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصوله ، ولا تنضبط أجزاؤه صدقت ، فان كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم الأهم ، والأوكد الأوكد ، وبالفرض قبل النفل . يكن ذلك عدلا قصدا ، ومذهبا جميلا . وقد قال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعا في غايته ، والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله ، فهذا وجه لما ذكرت . وقال آخرون : علم الملوك النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسير ، وعلم التجار الكتاب والحساب ، فأما ان يسمى الشيء علما وينهى عنه من غير أن يسأل مما هو أنفع منه فلا .

ولهذا خاض المأمون في كل هذه العلوم والمعارف ولم يقتصر على شيء منها بعينه ، حتى الطب كانت له معرفة به ، فقد روى أحد الفقهاء الذين يحضرون مجلسه أنه تفدى عنده يوما فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون من الطعام ، فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتنجب هذا ، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، فوالله ما زالت تلك حاله في كل لون يقدم حتى رفعت الموائد ، فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين

ان خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه ، أو في الفقه كنت على بن أبى طالب في إمامه ، أو ذكر السخاء فانت فوق حاتم في جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته ، أو الكرم كنت كعب بن أمية في إثاره على نفسه . فرد المأمون قائلا : يا أبا محمد ان الانسان انما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم .

وبسبب حب المأمون للعلم والثقافة التي خاض بحورها ومسالكها ، كان يكره الجهل وينفر من الجهلاء . قال يوما لأبى على المعروف بأبى يعلى المنقرى : بلغنى أنك أُمى ، وأنك لا تقيم الشعر ، وأنتك تلحن في كلامك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما اللحن فربما سبقنى لسانى بالشئ منه . وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أميا وكان لا ينشد الشعر ، قال المأمون : سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتنى عيبا رابعا وهو الجهل ، يا جاهل : ان ذلك فى النبى صلى الله عليه وسلم فضيلة وفى أمثالك نقیصة . وانما منع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لنفى الظنة عنه لا لعيب فى الشعر والكتاب . وقد قال تبارك وتعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) . وهكذا فسر المأمون معنى أمية الرسول تفسيرا بديعا يكشف عن تمثله الدقيق لما يقرأ ، واجالته الفكر فى كل ما يعرض له من أمور ، وبكل ذلك استحق أن يدعى الخليفة العالم (١) .

(١) يقول أبو معشر المنجم فى ذلك : كان المأمون أمارا بالعدل ، فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء (تاريخ الخلفاء : ٢٠٤)

الفصل السادس

في سبيل العقيدة

بطن بعض المستشرقين أن المأمون لم يكن متدينا ، وأنه كان صعب العقيدة فاسدها ، ومن هؤلاء المستشرقين فون كريمر ولا مبريكو كاسنرو . وأولرى . ويذهب كريمر الى هذه الفكرة لأن المأمون في رأيه لم يفتن أثر رأيه في اتخاذ الأساليب العدائية ضد المانوية بدليل ما رواه صاحب الأغاني من ارسال المأمون لرئيس المانوية في الرى واسمه يزدان بخت يدعو للحضور لمناظرة العلماء المسلمين . فغلب يزدان بخت في المناظرة ودعا المأمون للدخول في الاسلام نأبى ، ومع ذلك شمله المأمون برعايته التامة . ومنه هذه الحادثة لا تعني قط مروق المأمون عن الدين الصحيح ، وإنما ينبئ أن تفسر تفسيراً وحيداً ، وهو أن المأمون كان مؤمناً بحرية العقيدة الى أقصى حد ، الا للمرتد ، فقد كان يأخذه بأقصى الشدة وأقصى أنواع العقوبة . ثم يلمح كريمر بعد ذلك الى علاقة المأمون بالفرس ، ويدعى أنه لم يكن متعصباً للإسلام ، بل ان التيار في عهده كان في غير مصلحة الاسلام بسبب هذه العلاقة . وهذا افتراض غريب لا يصح حدوثه . فاذا كان هناك صراع بين العرب والفرس في عهد المأمون - وهو ما أشرنا اليه من قبل - فليس معناه قط أن العرب يعني المسلمين ، فميل المأمون الى الفرس يكون معناه وقوفه ضد مصلحة الاسلام .

أما كاسنرو فيدعى أن المأمون لم يكن يسير على النهج الاسلامي

القديم ويقصد به السنة ، وقد نتجاوز عن ذلك التعبير ، على الرغم من خطورته ، ولكننا لا نستطيع أن نتجاوز عن قوله انه كان يظهر جنوحا نحو تعاليم أصحاب البدع . فالمؤمن لم يكن مبتدعا حتى في موضوع خلق القرآن كما سوف نرى .

وأما أوليرى فهو يقول ان المؤمن كان يتذوق نقاش المسائل الدينية بحرية عظيمة ، مما يوحي بأنه يريد القول ان المؤمن كان لا يتحرج كثيرا في المسائل الدينية . والذي دعا مثل هؤلاء الباحثين الى التشكك في عقيدة المؤمن فهمهم الخاطئ للتسمية التي أطلقها أحد أفراد حاشية المؤمن عليه - وهو يحيى بن عامر ابن اسماعيل - اذ قال له : يا أمير الكافرين ، فأمر به المؤمن فقتل بين يديه . ولم يكن يحيى بن عامر يقصد اتهام المؤمن بالكفر ، وإنما كان يعنى انقياده لأعداء العرب من الفرس المجوس أو ذوى الأصل المجوسى ، وذلك فى أثناء وجوده بمرور . وقد سبق أن وجه إليه هذه التهمة نفسها نعيم بن حازم حين قال له :

قدمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك .

أما عقيدة المؤمن فلا ينبغي أن تكون موضع شك بسبب ميله الى حرية التفكير والعقيدة ، فقد كان إيمانه لا يتزعزع ، وكان قائما بجميع الفرائض الدينية على أتم وجه ، وكان شديدا فى معاملة الفساق ، أو ممن يشتبه منهم خروجا على الدين . ولعلنا نؤكد ذلك بما رواه الطبرى عن غناء علويه أمام المؤمن حين كان بدمشق بهذين البيتين :

برزت من الاسلام ان كان ذا الذى

أتاك به الواشون عنى كما قالوا

ولكنهم لما رأوك سريعة

الى توأصوا بالنميمة واحتالوا

فقال المؤمن : يا علوية لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضى ، قال : أى قاض ويحك ؟ قال : قاضى دمشق ، فقال : يا أبا اسحق اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فليحضر الساعة . قال : فأحضر شيخ

مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان
 الفلاني ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله . فقال : يا علويه
 أنشدك الشعر فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير
 المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يملك في سبيل الله ان كان قال
 الشعر منذ ثلاثين سنة ، الا في زهد أو معاتبة صديق . فقال :
 يا أبا اسحق اعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ في هزله
 بالبراءة من الاسلام ، ثم قال : اسقوه ، فأتى بقدر فيه شراب ،
 فأخذه وهو يرتعد فقال : يا أمير المؤمنين ماذا كنت قط . قال : فلعلك
 تريد غيره ، قال : لم أذق منه شيئا قط ، قال : فحرام هو ؟ قال :
 نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أولى لك بها ، نجوت فاخرج . ثم قال :
 يا علويه لا تقل برئت من الاسلام ، ولكن قل :
 (حرمت مناي منك ان كان ذا الذي)

ومثل هذه الغيرة على الدين لا يمكن أن تصدر عن فاسد العقيدة
 أو منحرف ، بل نرى المأمون بالرغم من شربه النبيذ الذي اختلف
 في شربه الفقهاء - لا الخمر - والذي أجازاه أبو حنيفة يحرمه على
 قاضيه وصفيه يحيى بن أكثم ، فكان يحيى اذا دخل عليه وهو يشرب
 فلا يسقيه ، ويقول : لا أترك قاضى يشرب النبيذ .
 وكان المأمون حريصا على قيامه بدور الامام لا الخليفة فحسب،
 وتلك حقيقة غابت عن أذهان كثير من الباحثين ، فنجد « أوليري »
 يقول ان الاسلام لم يقم الخليفة معلما دينيا ، ويقول أحمد أمين ان
 المأمون خلط بين منصب الخليفة ومنصب المعلم فأراد أن يكون
 خليفة ومعلما معا .

وهذا الخلط بين طبيعة المعلم ومنصب الخلافة لم يكن قاصرا على
 المأمون وحده - وان كان قد بدا في عهده بصورة صارخة بسبب
 محاولته فرض نظرية اهتدى اليها المعتزلة - ولكنه كان موجودا في
 الخلفاء العباسيين جميعا . وقد تنبه الى حقيقة هذا التغير الذي طرأ
 على منصب الخليفة بعد سقوط الأمويين « جولدزهر » اذ قال ان
 العباسيين لم يقبلوا أن يكونوا ملوكا فقط ، بل أرادوا أولا أن

يجسبوا أنهم أئمة ، وأن تفهم حكومتهم على أنها حكومة دينية . وبرى « جولدزيهر » أن ذلك التحول كان نتيجة للتأثر بالأفكار المارسية ، لأن المثل الأعلى للحكومة الفارسية كان تأخى الدين والدولة . وقد سبق أن لاحظنا أن مديح الخلفاء العباسيين كان يؤكد حقيقة امامتهم الدينية . ولهذا نرى المأمون يحرص على أداء واجب الامام ، فكان يؤم الناس فى أيام الجمع وفى الأعياد ، كما نستقى من سيرته ، وقد روى لنا ابن قتيبة بعض نصوص خطبه الدينية ، فمن ذلك خطبته فى يوم جمعة ، التى ينبىء كل حرف فيها عن صدق ايمانه وعظيم يقينه ، يقول فيها : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجه على خلقه ، أحمدته وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لا عنده ، والتنجز نوعه ، والخوف لوعيده ، فانه لا يسلم الا من اتقاء ورجاء وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جد بكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فان الله لم يخلقكم عبنا ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار الا الموت أن ينزل به » *

وفى خطبة يوم الاضحى بعد التكبير الأول يقول المأمون : « أن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظم حرمة ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من أنذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومقدم الأيام المعدودات من النفر ، يوم حرام من أيام عظام فى شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله الى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز (وأذن فى الناس بالحج) الآيات ، فتقربوا الى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب

أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فانه يقول (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

ومن خطب المأمون الدينية التي حفظها لنا ابن قتيبة أيضا
خطبته يوم الفطر بعد التكبير الأول التي يقول فيها : « ان يومكم
هذا يوم عيد وسنة ، وابتهاج ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر
رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر وأول
أيام شهور الحج ، وجعله معقبا لمفروض صيامكم ، وتنفل قيامكم ،
أحل فيه الطعام لكم ، وحرم فيه الصيام عليكم ، فاطلبوا الى الله
حوادثكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فانه يقال لاكبر مع استغفار ،
ولا صغير مع اصرار . ثم قال : ولست أنهاركم عن الدين يا بأعظم
مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فانه كل ما لا ينهى عنها ، وكل ما فيها
يدعو الى غيرها ، وأعظم مما رآته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله
ونهى الله عنها فانه يقول (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله
الغرور) وقال (انما الحياة الدنيا لعب ولهو) الآية ، فانتفعوا
بمعرفتكم بها ، وبأخبار الله عنها ، واعلموا أن قوما من عباد الله
أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها ، وآثروا
طاعة الله فيها فأدركوا الجنة بما تركوا منها » .

وواضح من هذه الخطب الدينية جميعا روح الايمان التي تشع
من قلب المأمون ، وتعطفه عن الدنيا ، وامتناله لفروض الدين وتجنبه
لنواحيه ، ومعرفته الدقيقة بآيات الله وأحاديث الرسول ، حتى لقد
قيل : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء الا عثمان بن عفان والمأمون .
أما علمه بالحديث فقد أجمع عليه الرواة ولم يختلفوا فيه ، وقد قدمنا
صورة لهذا العلم في الفصل السابق . وبهذا الايمان القوى ، وفي
سبيل العقيدة أقبل المأمون على علم الكلام ، ويقول في ذلك « ولتر
بأنون » : « وقد هيأت له (للمأمون) همته في التحصيل لما كان
طالبها مكانة ممتازة بين المتفقهين بعلوم الدين ، ولكن ذهنا متقدرا
كذهنه ، قوى الميل الى قدر من العلم أوسع مدى مما تهيئه له حد : .
السنة الاسلامية سرعان ما أبدى شغفه بالفلسفة التي كان الناس

قد بدأوا العناية بها في عهد العباسيين ٠٠ ومع ذلك فاننا لاننظر الى المأمون على أنه رجل ليس الورع والتقوى من طبيعته ، أو أنه اشتد ولعه بالمسائل الدينية ليشبع نهمه في الجدل والمناظرة ، فقد قيل عنه انه ختم في رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة ، كما أنه كان ينفع شيوخ الحديث بالمال سدا لحاجتهم » .

وقد استخدم المأمون دراسته لعلم الكلام في الدفاع عن الدين ، فكان يعقد المجالس الدينية المختلفة ويستقدم اليها أصحاب البدع والأهواء ليحاول اقناعهم بالحجة والبرهان ، وكان يحاول أيضا التوفيق بين المذاهب الاسلامية المختلفة في عصره ، وقد روى في ذلك يحيى بن أكثم قال : أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فأخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم ، فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي الا بانتقاص غيره من السلف ، والله ما أستحل أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وان الرجل ليأتين بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون الا درهما أو نحوه فيقول : ان هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، أو مسه ، وما هو عندي بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، الا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر اليه وبمسه ، فأستشفى به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به ، فأصونه كصيانتي نفسي ، وانما هو عود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلة له تستوجب به المحبة الا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه ، وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر

معه أيام الشدة وأوقات العسرة • وهذا النص يطلعنا على مسائل
فى غاية الأهمية ، منها عقد المأمون للمجالس الدينية منذ قدومه الى
بغداد ، وجمعه الفقهاء لمناقشتهم فى أمور الدين ، ثم هذه النفحة
الجميلة من الايمان التى تدعوه الى التبرك بما مسه الرسول والتداوى
به على الرغم من حسن استدلاله العقل وعدم ثقته بمن دله على هذا
الأثر النبوى • ثم هو يحدد علاقته بالعلويين على أساس محبته لعل ،
لصحبته للرسول ودفاعه عن الدين ، وأن موقفه ازاء الصحابة يماثل
هذا الموقف ، بل ان خلقه يأبى عليه التناقص من أحد ولو كان
الحجاج بن يوسف بكل بطشه وجبروته وطغيانه • ويظهر أن
المأمون لم يكن حتى ذلك الوقت الذى يتحدث فيه يحيى بن أكرم قد
تأثر بتعاليم المعتزلة تأثرا خطيرا ، بدليل تنكبه فيما بعد عن المبدأ
الذى وضعه لنفسه ، حتى انه أمر بلعن معاوية على المنابر لما سبق
أن أشرنا •

وبسبب رغبة المأمون فى الدفء عن الدين باستخدام
أساليب علم الكلام نراه يجادل المرتدين عن الاسلام جدلا عقليا
قبل أن ينفذ فيهم حكم الشرع ، فقد حمل اليه رجل مرتد ، فقال له :
لأن أستحييك بحق واجب أحب الى من أن أقتلك بحق ، ولأن أدفع
عنك بالتهمة وقد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا ، وكنت فى
الاسلام أفيح مكانا وأطول أياما فاستوحشت مما كنت به آنسا ،
ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا ، فخيرنا عن الشئ الذى أوحشك
من الشئ الذى صار آنس لك من ذلك القديم وأنسك الأول ، فان
وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، اذ كان المريض يحتاج الى
مشاورة الأطباء ، فان أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء ، وكنت
قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة
ترجع أنت فى نفسك الى الاستبعاد والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى
اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم • فقال المرتد : أوحشنى ما رأيت
من كثرة الاختلاف فى دينكم • قال المأمون : فان لنا اختلافين :
أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجناز والاختلاف فى التشهد

وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف انما هو تخير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى وأقام فرادى لم يؤثم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعابيون . أنت ترى ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا .

والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع اجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والانجيل متفقا على تأويله كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملقين من اليهود والنصارى اختلاف فى شيء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع الا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكننا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا . فقال المرتد : أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقا . فانحرف المؤمن نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : وفروا عليه عرضه ، ولا تبروه فى يومه ريثما يعتقد اسلامه ، كى لا يقول عدوه انه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأييسه والفائدة عليه .

وهذه المناقشة تطلعننا على قوة الحجاج عند المؤمن وقدرته الكلامية ، وفهمه لدقائق الدين فرائضه وسننه ، واتساع صدره لمناقشة أصلا انما كان فى سبيل الله ، فقد كسب مؤمنا عن عقيدة بدلا من أن يخسر مرتدا جاهلا . وهذه المناقشة انما تقع على عاتق المعلم فى شخصية المأمون أو الامام ولا تقع على عاتق الخليفة ، وهذا

يؤكد ما سبق أن ذكرناه وهو أن المأمون كان يقوم بالواجبين معا ،
تأدية لمفهوم الخلافة العباسية أصلا .

ومن مناظرات المأمون مع الثنوية ما ذكره الرواة أن المأمون قال
لثنوى يناظر عنده : أسألك عن حرفين خبرني : هل ندم مسيء قط
على إساءته ؟ قال : بلى ، قال : فالندم على الإساءة إساءة أو إحسان ؟
قال : بل إحسان . قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال :
بل هو الذى أساء . قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ،
وقد بطل قولكم ان الذى ينظر نظر الوعيد هو الذى ينظر نظر
الرحمة ، قال : فاني أزعج أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال : فندم
على شيء كان من غيره أو على شيء كان منه ؟ فأستكنه وكما أفحيم
المأمون هذا الثنوى كذلك أفحيم رجلا من الخوارج أدخل عليه فقال
له : ما حملك على خلافنا ؟ قال : آية فى كتاب الله تعالى ، قال :
وماهى ؟ قال : قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
الكافرون) فقال له المأمون : ألك علم بأنها منزلة ؟ قال : نعم ،
قال : وما دليلك ؟ قال : إجماع الأمة ، قال : فكما رضيت بإجماعهم
فى التنزيل ، فأرض بإجماعهم فى التأويل . قال : صدقت .

وهكذا كان المأمون فى كل مناقشاته قوى الحجة ساطع البرهان ،
قادرا على اقناع خصمه ، وكان يقارع الرأى بالرأى ولا يستغل
سلطانه كخليفة فى الظهور على من يناظره ، بل لقد وضع المأمون
أساسا للمناقشة وآدابها ، فقد ذكر بشر المربى أنه حضر مجلسا
كان فيه المأمون وثمالة ومحمد بن أبى العباسى وعلى بن الهيثم
فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الامامية ونصر
على بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما الى أن قال محمد لعلى :
يانبى ما أنت والكلام ؟ قال فقال المأمون وكان متكئا فجلس :
الستم عى ، والبذاء لؤم ، انا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات ،
فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ، ومن جهل الأمرين
حكمننا فيه بما يجب . فاجعلا بينكما أصولا فان الكلام فروع ، فاذا
افترعتم شيئا رجعتم الى الأصول .

ولم يكن المأمون أول خليفة عباسي يقبل على علم الكلام ، فقد أمر المهدي الجديليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحددين ، ولكن الرشيد منع الجدل في الدين ، وكان شديدا على أهل علم الكلام حتى انه اتهم ثمامة بن أشرس بالزندقة وألقى به في السجن .

وقد اختلف الباحثون حول حقيقة اتصال المأمون بمذهب المعتزلة وكيفية بداية هذا الاتصال . كما اختلفوا حول أهمية الدور الذي قام به ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد لحمل المأمون على متابعة آراء المعتزلة الدينية . والذي لا شك فيه أن شخصية المأمون - كما أوضحنا معالها - كان لها أكبر الأثر في اتصاله القوى بمذهب المعتزلة ، اذ كان بطبيعته رحب العقل واسع الصدر حر الفكري مقبلا على العلوم والثقافة بأنواعها المختلفة ، راغبا في الدراسات الفقهية والدينية بصفة عامة . فلما قرب اليه علماء الكلام والفقهاء وأهل الحديث ومن اليهم لمناظرتهم ، اصطدم بالتفكير السلفي الجامد الذي لا يعرف المرونة في التفكير ، والذي كان منعزلا عن التيارات المذهبية والفلسفية والكلامية المحيطة به . كما يقول « أوليري » بحق . ووجد المأمون نفسه ميالا بطبعه الى المتكلمين من أصحاب النظر الحر الذين لا يهمهم قول السلف بقدر ما يهمهم قبول العقل لما ينظرون فيه . وهكذا انجذب المأمون الى المعتزلة ، واتخذ بطانته وصحابته من أتباع ذلك المذهب .

ويقول الدكتور طه الحاجري ان هناك سببا آخر لاتصال المأمون بالمعتزلة وهو أن هذا المذهب أخذ يشق طريقه منذ نشأته في هدوء واطراد ، ثم استطاع أن ينفذ الى البيئات المترفة عن طريق ذلك الترف العقلي الذي كانت تصطنعه والذي كان يحملها على الاحاطة أو الالمام بالآثار العقلية ، كالذي نراه عند جعفر بن يحيى البرمكي من اقباله على آثار أرسطو ، وكالذي نراه عند أخيه الفضل بن يحيى من ايثاره بعض المعتزلة كأبي سهل بشر بن المعتمر ، وذلك بالرغم مما نعرف عن البرامكة من نزعة شيعية . ونستطيع أن نضيف الى

ذلك أيضا سببا آخر هو نقمة المأمون على السياسيين من أمثال الفضل بن سهل ، واحساسه بمكاره السياسة وبلائها ، ولهذا أقبل على أصدقائه العقليين اقبالا خاصا ، فأتخذ منهم بطانته وأهل مشورته ، وأقبل على هذه الحياة العقلية (فأباح الكلام وأظهر المقالات) كما يقول الطبري وشجع على المناظرة ، وجعل مجالسه مجالس بحث ونظر وحوار بين المذاهب المختلفة ، وأقبل على هذه المتعة العقلية يحيط بها نفسه ويملاً بها حسه ، ولم يكن هنالك من يستطيع أن يعمر هذا المكان خيرا من المعتزلة ، ولذلك اصطفاهم وأدناهم .

ويبدو أن ثمامة بن أشرس قد وثق صلته بالمأمون منذ كان في مرو ، وأنس المأمون اليه ووثق بعلمه ، بل يقول البغدادى ان المأمون تلقى على يدى ثمامة مبادئ الاعتزال فكأنه كان يقف منه موقف التلميذ من أستاذه . ولم يكن المأمون أول خليفة يقرب اليه معتزليا ، فقد كان عمرو بن عبيد صديقا لأبى جعفر المنصور ، وكان أبو جعفر يدينه اليه ويطلب موعظته . ولكن مكانة ثمامة من المأمون كانت أوثق من ذلك بكثير ، فقد كان ينزل منه فوق منزلة الوزراء . وقد روى المؤرخون أن المأمون عرض الوزارة على ثمامة بعد موت الفضل بن سهل فأبأها ، ولكنه أشار على المأمون بتعيين أحمد ابن أبى خالد الأحول ، ثم رشع بعده يحيى بن أكثم ، وهو الذى أغرى المأمون بإعلان البراءة من معاوية وممن ذكره بخير . وكانت هذه خطوة لتحول المأمون نهائيا الى مذهب المعتزلة .

ولم يكن ثمامة يتورع — فى سبيل حمل المأمون على الدخول فى الاعتزال — عن اتهامه بالعامية ، ليثبت أن الاعتزال هو مذهب المثقفين . ولم يكن قرار المأمون بإعلان البراءة من معاوية سهلا على نفسه ، فهو يخالف مبادئ المأمون التى أشرنا اليها من قبل ، والتى تدعو الى عدم النيل من أحد حتى ولو كان الحجاج . ولكن جمهور المعتزلة يعلنون البراءة من معاوية من قديم ، وقد تعرض المأمون لضغط شديد من ثمامة وضغط معاكس من يحيى بن أكثم الذى

كان يمثل المحدثين فى بلاط الخليفة • وقد رأى المحدثون فى هذه المسألة مادة يقاومون بها نفوذ المعتزلة ، ويحاولون إثارة سخط العامة عليهم ، وقد وضع ذلك فى محاولة يحيى بن أكثم منع المأمون من اعلان قراره بلعن معاوية بتخويله من ثورة العامة • ولكن المأمون استجاب أخيرا لرأى ثمامة بن أشرس ممثل المعتزلة الذى مالبت أن اندفع فى خصومته للمحدثين ومن ورائهم العامة ، فدفع المأمون - فى السنة التالية لاعلانه البراءة من معاوية - الى القول بخلق القرآن •

وواضح مما يقوله المؤرخون أن فكرة خلق القرآن كانت تراود ذهن المأمون منذ وقت بعيد ، وأنه كان يناقشها فى مجالسه الخاصة ، ثم أعلن رأيه للناس بتفضيلها فى عام ٢١٢ هـ ، ولكنه لم يضطرهم الى القول بها ، بسبب تعاطف نفوذ المحدثين وخوفه منهم ، وظل على ذلك ست سنوات ، كانت الظروف خلالها قد تغيرت ، وخاصة بعد عزل يحيى بن أكثم - ممثل المحدثين فى بلاط الخليفة - عام ٢١٧ هـ وتولى أحمد بن أبى دؤاد مكانه ، وهو من أقطاب المعتزلة الذين اتصلوا بالمأمون منذ قدومه الى بغداد ، وعند ذلك اضطر المأمون الناس الى القول بخلق القرآن •

وعلاقة أحمد بن أبى دؤاد بالمأمون ترجع فى أصلها الى يحيى ابن أكثم ، فقد كان ابن أبى دؤاد يحضر مع الفقهاء مجلس يحيى ، وفى يوم جاءه رسول المأمون فقال له : يقول لك أمير المؤمنين انتقل الينا وجميع من معك من أصحابك ، فلما حضروا مجلس المأمون أعجب بحديث ابن أبى دؤاد وطلب اليه أن يحضر كل مجالسه • وربما كان ابن أبى دؤاد بين أهل العلم الذين اختارهم يحيى بن أكثم للمأمون عند دخوله الى بغداد سنة ٢٠٤ هـ • وبلغ من اعجاب المأمون به أن أوصى أخاه المعتصم فقال : « وأبو عبد الله بن أبى دؤاد لا يفارقك ، أشركه فى المشورة فى كل أمرك فانه موضع ذلك » • وفكرة خلق القرآن ترجع الى بداية القرن الثانى للهجرة حين نادى بها الجعد بن درهم مؤدب الخليفة الأموى مروان الثانى ، فلم

يلبث أن قتله خالد بن عبد الله القسرى بأمر الخليفة هشام
ابن عبد الملك . وتوارت هذه الفكرة : حتى أيام هارون الرشيد ،
اذ آمن المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك صراحة .
وقد كان الرشيد غير مستعد لمجرد سماع هذه الفكرة بدليل قوله :
بلغنى أن بشرا المريسي يقول : القرآن مخلوق ، والله على أن أظفرن
الله به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا . فلما علم بشر بذلك ظل متواريا
أيام الرشيد نحو من عشرين سنة .

ومما أثار الناس أيضا ما كان لكلمة مخلوق من دلالة خاصة
إبان القرنين الثامن والثالث الهجريين ، ومما يؤيد ذلك ما أورده
الراغب الأصفهاني عرضا في محاضراته أن الخليل بن أحمد كان يمنع
وصف الكلام بالمخلوق ، ويقول ان الكلام متى وصف بالخلق
فالقصد به الكذب ، ولذا يقال كلام خلقه فلان أى تقوله ، ولهذا نرى
بعض الفقهاء الذين سئلوا فى القرآن إبان المحنة قالوا نصفه بأنه محدث
ولا نقول انه مخلوق لقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث)
وقد اختلف الباحثون فى أصل مسألة خلق القرآن ، ف قيل ان الجعد
ابن درهم أخذها عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت
ابن أعصم اليهودى ، فهى اذن من أصل يهودى ، وقد أخذ جهم
ابن صفوان عن الجعد هذه الفكرة ، وانتقلت الى المعتزلة ، فكان أول
من قال بها أيام الرشيد بشر المريسي ، وهو من أصل يهودى أيضا ،
كان أبوه يهوديا صبغا بالكوفة ، ويروى ابن الأثير أن أول من نشر
هذه الفكرة بين المسلمين لبيد بن الأعصم الذى كان يقول بخلق
التوراة ثم أخذها عنه ابن أخيه طالوت . ويقول ابن قتيبة فى عيون
الأخبار ان أول من قال بها المغيرة بن سعيده العجلي ، وهو من أتباع
عبد الله بن سبأ اليهودى . وكان هذه الروايات تجمع على أصل
الفكرة اليهودى ، ولكننا نجد باحثا مثل « دى بور » يقول ان القول
بقدم القرآن متابعة لمذهب المسيحيين فى الكلمة

وأيا كان الأمر فقد اعتقد المأمون بصحة هذه الفكرة ، وذهب
بعيدا فى الانتصار لها ، لأنها فى رأيه متصلة بالتوحيد ، فانكارها

انكار له ، بل هو يقول فى أول رسالة له « لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » . ونراه يبعث الى عامله على بغسداد اسحق ابن ابراهيم الخزاعى - وهو ابن عم طاهر بن الحسين - كتابا يطالبه فيه بامتحان القضاة والمحدثين فى موضوع خلق القرآن ، اذ يرى من واجبه تصحيح عقائد الناس الفاسدة الذين يرون أن القرآن قديم ، ويرى المأمون أن يعدل الناس عن هذا الرأى وخاصة القضاة ، بل ان القاضى لا يوثق بقضائه ، والشاهد لا توثق بشهادته الا اذا اعتقدا بقديم القرآن . يقول فى هذا الكتاب : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا استتضاء بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته » ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ، وقد قال تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) فكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال الله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر أنه قص لأمر أحدثه بعدها ، وقال (أحكمت آياته ثم فصلت) والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه .

وقد كتب المأمون هذا الكتاب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ قبل أن يخرج للمرة الأخيرة لغزو الروم وقبل وفاته بنحو أربعة شهور . وقد أرسلت صورة من هذا الكتاب الى جميع الولايات فى الدولة . ثم كتب المأمون كتابا ثانيا الى اسحق يأمره فيه بأن يشخص اليه سبعة من وجوه المحدثين ببغداد حتى يتولى امتحانهم بنفسه . ويقول « باتون » ان هذه الحركة من جانبه تدل على حذقه وبراعته اذا نظرنا اليها من وجهة الهدف الذى كان يسعى اليه ، اذ يدخل فى روعهم وهم أمام أعوانه ورجال بلاطه وجلاديه ما قد يجره غضبه من نقمة وأهوال ، واذا ظفر الخليفة بانقياد هؤلاء الزعماء ومتابعتهم

لرأيه ، لم يكن هناك ما يخشاه ممن كان من المحدثين والفقهاء أقل
شأنا وأدنى منزلة •

أما هؤلاء الفقهاء السبعة الذين امتحنوا فى خلق القرآن فهم :
محمد بن سعد كاتب الواقدي ، أبو مسلم مستمل يزيدي بن هارون ،
يحيى بن معين ، زهير بن حرب ، أبو خيثمة ، اسماعيل بن داود ،
اسماعيل بن أبي مسعود ، أحمد بن إبراهيم الدورقي • ويقال ان
اسم أحمد بن حنبل كان مدرجا بين أسماء هؤلاء السبعة ، ولكن
أحمد بن أبي داود أمر بمحوه • ولعله أدرك أنه سوف يفسد اجابة
الآخرين بتشده • وقد أجاب هؤلاء السبعة المأمون الى ما طلبه من
الاقرار بخلق القرآن ، بفضل ما استخدمه معهم من وسائل الضغط؛
اذ يقول أحدهم وهو يحيى بن معين : أجبننا خوفا من السيف ثم
أرسلهم المأمون الى عامله ببغداد ليشهر أمرهم ، وليجيبوا بما أجابوا
به الخليفة فى حضرة الفقهاء وأهل الحديث •

وقد أساء موقف هؤلاء السبعة الى أهل السنة جميعا ، وكان
ابن حنبل يرى أنهم لو ثبتوا وتوقفوا عن اجابة المأمون لا تقطع أمر
الحنة ، ولما سمع بها أحد فى بغداد ، ولكف المأمون عن مخاشنتهم ،
ولهاب ايداعهم ، لأنهم أقطاب المدينة وأعلامها • ولكنهم لما ضعفوا لم
يتردد الخليفة فى امتحان غيرهم ، فأحضر وجوه الفقهاء والمحدثين ،
وقد عد لنا منهم الطبرى ستة وعشرين ، وقرأ عليهم اسحق
ابن ابراهيم كتاب الخليفة مرتين حتى يفهموه ، ثم بدأ امتحانهم
واحدا بعد واحد ، وكتب مقالة كل منهم وبعث بها الى المأمون •
وواضح من كلام الطبرى أن بعض هؤلاء الفقهاء قد أقروا بخلق
القرآن • ولم يلبث أن جاءه كتاب الخليفة الرابع بعد تسعة أيام
فقط ، وفيه يفضح العلماء الذين امتنعوا عن اجابته الى ما طلب ،
ويأمر اسحق بن ابراهيم بضرب عنق كل مخالف ، لأنه فى رأيه
يرتكب (الكفر الصراح والشرك المحصن) ، فهو يصف الذبال
ابن الهيثم بأنه كان يسرق الطعام فى الأنبار ، وأحمد بن يزيدي
المعروف بأبى العوام بأنه صبي فى عقله ولا يحسن الجواب فى

القرآن ، والفضل بن غانم بأنه يستغل نفوذه في الاثراء غير المشروع ، وهكذا يصف كل عالم فيصمه وصمة خطيرة ، ولكنه لم يجد شيئا يقوله عن أحمد بن حنبل الا بأنه استدل بانكاره على جهله .

وأحدث هذا التشهير غايته حين قرىء كتاب المأمون على العلماء ، فأقروا جميعا بخلق القرآن ماعدا أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريري ، ومحمد بن نوح المضروب . ولهذا قيدهم اسحق بالأغلال ووضعهم في السجن ، ثم أحضرهم أمامه في اليوم التالي فأجاب سجادة فأطلق سراحه ، وأحضروا مرة أخرى أمام اسحق ليعاود امتحانهم فأجاب القواريري ، ولم يثبت على اعتقاده الا أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح ، فحملا بأمر الخليفة من بغداد ليصيروا اليه ، فلما وصلا الى أذنة وافاهما نعي المأمون .

ذلك هو موقف المأمون من مشكلة خلق القرآن ، كما يتضح لنا من كتبه التي أرسلها في آخر حياته الى عامله على بغداد ، وهي تعتبر وثيقة تشرح آراء المعتزلة في هذه القضية مؤيدة بالآيات والشواهد والأدلة العقلية والنقلية . ويرى أحد الباحثين أن هذه الكتب من انشاء أحمد بن أبي دواد ، ويرجح ذلك على أساس أن المأمون كان مريضا ، وأنه يتسامى على ما يحتويه الكتاب الرابع الذي يطعن في الفقهاء والمحدثين ويذكر معائبهم رجلا رجلا . ونحن لا نستبعد ذلك، بل نميل الى تأييده ، ولكن ليس معنى هذا أن المأمون لم يطلع على هذه الكتب ويقرها ، بل نرى أنها جاءت موافقة لهواه . فقد كان مؤمنا بفكرته الى أقصى حد ، حتى ان العمار الحنبلي يقول في كتابه « شذرات الذهب » ان المأمون قام في هذه البدعة قيام متعبد بها ، وكان يرى أنه بحمل الناس على الايمان بهذه الفكرة انما يتقرب الى الله . وظل على ايمانه الى آخر حياته فأوصى أخاه بمواصلة جهوده في حمل الفقهاء والعلماء على الاقرار بخلق القرآن . ولهذا نلتمس العذر للمأمون لتشدده في فرض رأى المعتزلة على الناس أجمعين ، إذ وقر في نفسه بتأثير المعتزلة الذين أحاطوا به أن عسدم الاقرار

يخلق القرآن معناه رفض التوحيد ، مما يستوجب أقصى العقوبة . وبهذا شاب حكمه الذى امتاز بحرية الفكر والعقيدة سنوات طويلة بتهمة التعصب المقيت التى رماها بها كثير من الباحثين من عرب ومستشرقين : وفى ذلك يقول « ول ويورانت » : لقد أساء المأمون الى نفسه فى السنين الأخيرة من حياته لاضطهاده أصحاب السنة . ويقول « الدوميللى » : لقد أقام المأمون تفتيشا حقيقيا لمطاردة أهل السنة ، وذلك باسم التفكير الحر . ويقول جمال الدين القاسمى : موضع الغرابة من كتاب المأمون هو حمل الناس على غير ما يعتقدون ، وإكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهانا من أنفسهم ، مع أن الإكراه على أصل الأصول ومابه العصمة والنجاة وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه فى غير ما موضع من التنزيل الكريم لآية (لا إكراه فى الدين) و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وحقيقة الخلاف حول قضية خلق القرآن يجمعها الأستاذ أحمد أمين فيقول ان المعتزلة والمأمون كان رأيهم العلمى حقا وصحيحا ، ولكن خصومهم كانوا على حق فى ألا تنار هذه المسألة أمام العامة . وقد أخطأ المعتزلة والحكومة خطأين : الأول ارادتهم إشراك العامة فى هذه المسائل ، والعامة أبعد الناس عن ذلك . وكيف يفهمون علم الكلام وهو علم دقيق تاهت فيه عقول الخاصة . والثانى حملهم الحكومة أن تتدخل بسلطانها فى هذه المسألة فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مجالسهم للجدل والمناظرة مجمعا كمجامع القساوسة يقررون فيه ما يشاءون ، ثم يرغمون الناس على القول بما يقررون . وقد غلوا تغلوا شنيعا فى أنهم عدوا السكوت عن القول بخلق القرآن إشراكا ، وأشد ما يدعو الى الغرابة أن يكون المعتزلة مصدر هذا التعذيب وهم الداعون الى حرية الفكر والقائلين بسلطان العقل . وكان انتصار المعتزلة من ناحية الجدل والاستدلال فى مناظرة أهل السنة واضحا كلى الوضوح لاعتمادهم على طريقة البحث الاستدلالية الجدلية ،

أما أهل السنة فلم يكونوا يعارضونهم الا بأقوال فقهاهم الذين كانوا يحاولون إبعاد الدين عن الجدل الفلسفى ، وكانوا يجيبون فى كل مسألة تثار بالرجوع الى أصل من الحديث عن صحابة الرسول • وواضح من المناقشات التى دارت بين اسحق بن ابراهيم وبين علماء السنة ضعفهم فى المجادلة والاستدلال وعدم الدخول فى جوهر المشكلة ، والتهرب من إيجاد براهين عقلية • وحين وقف أحمد بن حنبل يجيب عما وجه اليه من أسئلة كان يقتصر على الاقتباس من القرآن والحديث دون أن يستنتج من هذه الاقتباسات أية نتائج ، وكان يسكت حين يسأله المحققون عما اذا كان موافقا على أية نتيجة يفهمونها هم من اقتباساته •

وربما يرجع هذا الى طبيعة فقه ابن حنبل الذى يعتمد على الكتاب والسنة الثابتة • وكان اهتمام ابن حنبل بالحديث ورواته وتدوينه أشد من اهتمامه بالفقه والفتاوى ، حتى عده بعض العلماء من المحدثين ولم يعده من الفقهاء •

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى موقف ابن حنبل : ابن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعا عقليا ولا نقليا عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : ان القرآن مجعول لقوله تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) فاذا سئل : هل المجعول مخلوق ؟ أجاب : نعم ، فاذا قيل له : فانقرآن اذن مخلوق ، رفض أن يجيب بالاجاب • وقد جاء مذهب الأشعرى فيما بعد ليسد النقص فى أسلحة أهل السنة. بازاء فرق المتكلمين حتى يمكننا اعتبار الأشعرى مؤسس علم الكلام السننى فى الاسلام ، أو صاحب مذهب التوفيق بين أهل السنة والمعتزلة •

لقد قضى المأمون حياته مدافعا عن العقيدة ، وفى سبيلها وفى سبيل حرية الرأى التى كان يتعشقها انزلق الى محنة خلق القرآن التى بدأها فاستمرت بعد وفاته ست عشرة سنة ، اذ أمر المتوكل سنة ٢٣٤ هـ بترك النظر والجدال فى هذه القضية وترك ما عليه الناس بالتسليم ، وأمر المحدثين باظهار السنة •

وهكذا اجتهد المؤمنون في إقامة دين الله فلم يهتد إلى الطريق الصحيح في فترة من حياته لم يجد بعدها فرصة لاصلاح خطئه ، اذ عاجلته المنون وهو يجاهد الروم بالسلاح ، ويجاهد أهل السنة لا بالعقل وحده - كما كان ينتظر منه - ولكن بسيف السلطان أيضا ، بينما كان يحس في قرارة نفسه أنه انما يفعل ذلك كله في سبيل العقيدة وفي سبيل الله •

الفصل السابع صورة الحاكم والإنسان

« كان معاوية بعمره ، وعبد الملك بحجاجة ، وأنا بنفسى » .
جملة قالها المأمون وكان يعنى كل حرف فيها ، وهو يذكر معاوية
ابن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان بوصفهما أعظم خلفاء بنى أمية
من ناحية استقرار الخلافة وازدهارها ، فاذا كان معاوية قد استعان
فى تأسيس دولة بنى أمية بدهاء عمرو بن العاص وبراعته السياسية ،
واذا كان عبد الملك قد استعان بالحجاج بن يوسف الثقفى فى قمع
الفتن وردع العصاة بالعنف الدموى ، فالمأمون لم يكن بجانبه
الشخص القوى الداهية الذى يستعين به فى أمور الدولة لكف العصاة
واخماد الفتن والنفاذ من مسالك السياسة ودروبها الضيقة . وأغلب
الظن أن المأمون قال هذه العبارة بعد انقضاء أمر الفضل بن سهل ،
وتوجهه الى بغداد وحيدا يجابه المشكلات دون أن يقف الى جانبه من
يشد أزره ويخفف عنه عبء المسئوليات والمصاعب التى تقابله .
وقد رأينا كيف كانت سياسة المأمون بالنسبة للوزراء بعد مقتل
الفضل بن سهل ، فهو لم يشأ أن يجعلهم وزراء يتحملون مسئوليات
الدولة السياسية والادارية ، وانما كانوا بالنسبة اليه مجرد كتاب
يملى عليهم أوامره فينفذون مشيئته . وواضح من سيرته معهم أنه
لم يكن يدعمهم يبرمون أمرا الا باذنه ، حتى مظالم الناس وشكاياتهم
كان يسمعها بنفسه ويمضى فيها رأيه .

وهكذا تغيرت صورة الوزير فى عهده تغيرا كبيرا عما عهدناه فى
وزراء الخلفاء العباسيين السابقين الذين كانوا يتصرفون فى أمور
الدولة تصرفا واسعا ، بلغ غايته بالنسبة للبرامكة فى عهد الرشيد

حتى أصبح لا يعي من أمر الدولة الا ما يخبره به وزير . . وكان
المأمون كذلك بالنسبة للفضل بن سهل ، ولكنه أحس أنه كان مخطئا
فى حق نفسه ودولته ، حتى أوشك الأمر أن يخرج من يده بسبب
تسلط الفضل عليه . واعتبر بما كان من البرامكة فى عهد أبيه
الرشيد ، فقرر أن يصرف شئون حكمه بنفسه .

وليس عجيبا أن يكون الوزراء الذين عملوا مع المأمون كتابا فى
أول أمرهم ، فقد كان بحاجة الى كتاب ، كما أن الكتابة ارتبطت
بالوزارة منذ عهد بعيد . وليس عجيبا أيضا أن يكون هؤلاء الوزراء
الكتاب جميعا من الموالى ، فأننا نجد الموالى يحتلون ديوان الخراج
منذ انشائه وهو انكفيل بموارد الدولة ومصادرها ودخلها وخرجها ،
فكان أجنبيا فى صورته ورجاله عند انشائه ، كان فارسيا فى
العراق وخراسان وما اليهما ، فكان يتولاه فى العراق مثل زاذان
فروخ منذ أيام معاوية ، وكان يتولاه فى خراسان اسطغانوس ،
أما فى الشام ومصر فكان ديوان الخراج روميا ، فتولاه زمن معاوية
الى عهد عبد الملك بن مروان سرجون بن منصور الرومى ، وفى مصر
كان ايناس بن خماية .

وكان لأصحاب هذه الدواوين سلطان كبير فى الدولة بسبب
هذا المكان الذى يحتلونه منها ، والحاجة التى يستشعرونها من
الدولة الى خدماتهم . ولما اتجهت الدولة أيام عبد الملك بن مروان الى
تحويل الديوان الى العربية تحول فى صورته فقط ، أما رجاله من
الموالى فظلوا فى مكانهم ، فاللغة العربية لم تكن تنقصهم .

وأما ديوان الرسائل فقد نشأ عربى الصورة بطبيعة الحال لأنه
يتولى أمر المكاتبات الرسمية الصادرة من الخلافة ، ولكن رجاله
جميعا كانوا من الموالى . ولعل السبب فى هذا يرجع الى قلة تجربة
العرب فيما يتصل بتدبير الدولة وممارسة السياسة ، ولكن هناك
سبب آخر وهو أن العرب كانوا ينظرون الى أمثال هذه الوظائف
الكتابية نظرة غير كريمة باعتبارهم عنصرا فاتحا يمتاز بالقوة
والفروسية ، وله حق السيادة والامتياز .

وهكذا نرى أن الموالي انفردوا بديوان الخراج وديوان الرسائل جميعا ، وبلغوا بذلك فى تدبير شئون الدولة منزلة فوق منزلة المشاركة ، ولاسيما منذ تعاضمت خطورة هذا الديوان ، فعلا تبعا لذلك شأنهم فى الدولة ، كما تعاضمت منزلتهم الاجتماعية منذ أوائل القرن الثانى . واستطاع الكتاب بمالهم من ثقافة خاصة أن يفرضوا لأنفسهم مكانا من الدولة ، فاذا بهم منذ أوائل الدولة العباسية يحتلون منزلة لا مطمح من ورائها ، وذلك حين أطلق على أحدهم وهو أبو سلمة الخلال لقب الوزير ، ثم اذا بأمر الدولة كلها موكولة اليهم ، فلم يفتنوا أن يكونوا كتاب رسائل فحسب ، وانما مدوا أبصارهم الى الآفاق البعيدة ليهيمنوا على سياسة الدولة ويفرضوا أنفسهم على الخلفاء . فليس بدعا اذن أن يكون كتاب المأمون ووزراؤه جميعا من الموالي ، ولكنهم جميعا - أو معظمهم على الأقل - كانوا من الكتاب البارزين والبلغاء المشهود بكفائتهم . وهذا الجانب هو الذى كان يحتاجه المأمون منهم .

ولاشك أن المأمون كان ذا مقدرة عظيمة فى اختيار الأشخاص الأكفاء الذين يعملون معه ، وكان بارعا فى اخفاء معاييهم أو مداواتها فى سبيل الاستفادة من كفائتهم فى نواح كثيرة . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك موقفه من أحمد بن أبى خالد الأحول ، فقد كان ذا كفاية ادارية عظيمة ، ولكن كانت به نقيصة الشره الى الطعام ، وكان المأمون يعرف ذلك عنه . وجه به يوما الى رجل يطالبه بمال وأرسل وراءه عينا له لينظر ما يقوله للرجل ومايرد عليه ويعلمه ما يصنع عنده . فلما ذهب ابن أبى خالد الى الرجل - وكان يعرف شرهه - أعد له غذاء فخما فأتى على ما فيه من حار وبارد وحلو وحامض ، ومن ضمنه عشرون فروجا لم يدع منها الا عظما عاريا ، وازاء هذه الأكلة خفض مقدار ما يستحقه المأمون قبل هذا الرجل ألف ألف درهم .

وكان المأمون يقول ان أحمد بن أبى خالد .. فيه جنسية من الكلاب ، فالكلب يحرس المنزل بالكسرة واللقمة ، وأحمد بن أبى خالد

يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة ! ولهذا أجرى عليه ألف درهم في كل يوم لمائدته ثلثا يشره الى طعام أحد . وكانت رقابة المأمون له كفييلة بمنع شره بالاضافة الى ما قدم له من بره . ومما يدل على استئثار المأمون بالنظر في كل أمور الدولة ، ما يحكيه ابن طغور عنه اذ قال لأحمد بن أبي خالد : اغد على باكرا لآخذ القصص التي عندك فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها . فبكر وقعد له المأمون فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها الى أن مر بقصة رجل يقال له فلان اليزيدي فصحف وقال الشريدي ، فضحك المأمون وقال : يا غلام ثريدة ضخمة لأبي العباس فانه أصبح جائعا . فلما أكلها وغسل يده رجع الى القصص فمرت به قصة فلان الحمصي فقال : فلان الخبيص ، فضحك المأمون وقال : يا غلام جاما ضخما فيه خبيص فان غداء أبي العباس كان مقبورا ، فلما أكله عاد الى القصص فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

ولاشك أن هذه القصة تطلعنا على تواضع المأمون الشديد وتلطفه في معاملة كتابه ، لا مع ابن أبي خالد فحسب ، بل مع كل الذين عملوا معه ، فقد روى ابراهيم بن الحسن ابن سهل قال : كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع ، فجاءته عطسة فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون فقال : يا عمرو لا تفعل فان رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعا في العنق . فقال بعض ولد المهدي : ما أحسنها من مولى لعبده وامام لرعيته ، فقال المأمون : وما في ذلك ، هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبى الى اصلاحها ، فقال هشام : انا لا نتخذ الاخوان خولا ، (١) فالذى قال هشام أحسن مما قلته .

ولم يكن من عادة المأمون - بطبيعته السمحة التي نعرفها - أن ينكب وزراءه كما فعل أسلافه ، وأقصى ما صدر منه في حق واحد منهم ، ما فعله بأحمد بن يوسف بتأثير مؤامرة مدبرة من المعتصم ،

(١) الخول : العبيد .

اذ وضع تحته البخور فأضر به . ويقول في ذلك الأستاذ محمد
كرد على : « كادت المصادر والنكبات تبطل في أيامه ، فلا ينكب
الا من حاول نقض بنیان الدولة ، ولقد رفع اليه أن عمرو بن مسعدة
خلف ثمانين ألف ألف درهم أو نحو ثمانية ملايين دينار فوقع على الرقعة .
هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » .
واذا قارنا هذا بحالات الاستصفاء التي تمت قبل المأمون وبعده
وجدنا الفارق كبيرا ، وأدركنا أن المأمون لم يكن يزعجه قط شراء
واحد من عماله ، لأن مراقبته الشديدة له كفيلة بأن تجعل ثراه
مشروعا ، وليس على حساب أبناء الشعب .

ومن أجل هذا كان المأمون يوسع على عماله حتى لا يسرقوا أموال
الرعايا ، وقد رأينا كيف خصص نفقة يومية ليكلف شره أحمد
ابن أبي خالد ، كما رفع عمالة الفضل بن سهل فجعلها ثلاثة آلاف
ألف درهم كل عام حين عقد له على الشرق كله . وكان المأمون رقيقا
مع عماله والمخالفين له من الناس جميعا ، على الرغم من أنه أنشأ
جهازا قويا للمخابرات في أنحاء مملكته يأتيه بأخبار عماله ورعيته
حتى ان النويرى يذكر في نهاية الأرب أنه كان للمأمون ألف عجز
وسبعمائة يتفقد بهن أحوال الناس ومن يحبه ويغضه ومن يفسد
حرم المسلمين . وكان لا يجلس في دار الخلافة حتى تأتيه مخابراته
بحصيلة من الأنباء ، بل كان هو نفسه يدور ليلا ونهارا مستترا
حتى يتعرف على آراء الناس في كل ما يعرض لهم من شئون حياتهم .
وبالإضافة الى هذا كله كان أصحاب الأخبار منبئين في كل مكان من
ولايات الدولة ، ومهمتهم الرسمية الكتابة الى المأمون بالأخبار المهمة
التي تمس سياسة الدولة الخارجية والداخلية . وكان المأمون يلجأ
أحيانا الى أناس عاديين يحصل منهم على أخبار العامة ، وفي ذلك
يقول ابن طيفور على سبيل المثال : كان المأمون يستطرف محمد
ابن الخليل ويدعوه أحيانا فيقول له : ما تقول العامة وما يتحدث
به الناس ؟ فيخبره بذلك .

ويروى لنا ابن طيفور أيضا قصة واحد من رجال مخابرات

المأمون أو هو رئيس هذا الجهاز واسمه ابراهيم بن السندی ، وكان يتولى الخبر في منطقة بغداد كلها ، لا يفعل ذلك بنفسه وإنما يبت أصحاب الأخبار في كل جزء من المنطقة التي يشرف عليها . رفع الى ابراهيم هذا أن صاحب الحرس في بغداد أخذ امرأة مع رجل نصراني من تجار الكرخ فهجم عليهما ، فافتدى النصراني نفسه بألف دينار . فأبلغ المأمون بذلك الخبر فاستدعى عبد الله بن طاهر وواجهه بما وصل اليه فقال : يا أمير المؤمنين رفع اليك الباطل والزور ، وجعل يغريه بابراهيم بن السندی ويحمله عليه ، فأثر ذلك في قلبه ، فقال لابراهيم : ترفع الى الكذب وتحملني على عمالي ، فأجاب ابراهيم : لو كانت الأخبار لاتصح الا بشاهدي عدل ماصح خبر ولا لقيت به ، ولكن مجيء الأخبار ان لم يحضرها أقوام على غير تواطؤ ولا تشاعر من كانوا ومن حيث كانوا ، وإنما يحضر الأخبار الطفل والمرأة والمحتال والذمر وابن السبيل . واقتنع المأمون بهذا الرد ، ولكنه قال : اني آمر وأدارى عمالي وعمالهم مداراة الخائف ، والله ما أجد الى حملهم على المحجة البيضاء سبيلا ، فاعمل لي على حسب ما تراني أعمل . وهكذا يتابع المأمون عماله في أدق أمورهم ، ولكنه لا يقسو عليهم ولا يعتو ، وكل ما كان يتمناه أن يوجههم الى الطريق الصحيح لخدمة الناس ومراقبة الله في كل ما يعملون . وكان يؤمن بأن ظلم العمال هو سبب كل فتنة تحدث في ملكه فهو يقول : ما انفتق على فتق الا وجدت سببه جور العمال . ولهذا كان يحرص على تتبع أخبارهم ويحاول أن يمحو آثار سوء سيرتهم ، فحينما ثار أهل صعيد مصر عربها وقبظها وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة بسبب سوء سيرة العمال فيهم ، ذهب المأمون بنفسه الى مصر - كما سبق أن أشرنا - وسخط على عامله عيسى بن منصور وقال له : لم يكن هذا الحدث العظيم الا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد .

ومع اهتمام المأمون البالغ باستقصاء أخبار العمال ، لم يكن سريع التصديق لكل ما يصله من أخبار ، بل كان يدقق فيها

ويرفض منها ما يشسبه عليه . ولهذا نرى أنه كف السعايات والوشايات فى عهده فلم يكن لها أدنى تأثير عليه . وقد ذكر البيهقى فى المحاسن والمساوى أن صاحب بريد همدان كتب الى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على اخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما ، فوق المأمون : « انا نرى قبول السعاية شرا من السعاية ، فان السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازة ، فأنف الساعى عنك ، فلتن كان فى سعائته صادقا ، لقد كان فى صدقه لثيما اذ لم يحفظ الحرية ولم يستر على أخيه » . وهذا لاشك موقف عظيم لحاكم يعرف مسئوليات الحكم ويأنف أن يجور على أحد بسبب وشاية قد تكون كاذبة ، وهو يضاف الى موقفه السابق من رفضه مصادرة ثروة عمرو بن مسعدة باعتبارها شيئا طبيعيا وليست منهوبة من أموال الشعب ، ولهذا نجد عمال المأمون يتفانون فى خدمته ويربطهم به ولاء حقيقى ، ليس ولاء مدارة أو تخوف ، يقول ابن طيغور فى ذلك ان أحد اخوة المأمون أبلغه أن عبد الله بن طاهر يميل الى العلويين فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ولكنه رأى أن يتحقق بنفسه من صدق هذا الخبر ، فدس رجلا قال له امض فى هيئة الغزاة أو النساك الى مصر فادع جماعة من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اثته فادعه ورغبه فى استجابته له ، وابتحث عن دقيق منبته بحثا شافيا ، واثنى بما تسمع منه ، ففعل الرجل ما أمره به المأمون حتى اذا دعا عبد الله بن طاهر الى ابن طباطبا قال له : أنتصفنى ؟ قال : نعم قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم ، قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الاحسان والمنة والتفضل ؟ قال : نعم . قال : فتجئ الى وأنا فى هذه الحال التى ترى لى : خاتم فى المشرق جازئ وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم ما ألتفت يمينى ولا شمالى ، وورائى وقدامى الا رأيت نعمة لرجل

أنعمها على ، ومنة ختم بها رقبتى ، ويدا لائمة بيضاء ابتدأني بها
تفضلا وكرما ، فتدعوني الى الكفر بهذه النعمة وهذا الاحسان وتقول:
انحدر بمن كان أولا لهذا وآخر .

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى ذلك الولاء الذى يربط
المؤمن بعماله ، بل يربطه بشعبه كله : كان فى المأمون شىء من
الجابية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على حبه ، ذلك أنه
كان يعرف أمزجة أمتة فيشغلها فى المفيد ، ولا لغو ولا لهو فى حياته ،
فكان بادارته مثال الجد فى الخوالب من بنى العباس ، يفكر فى
أمر رعيته أكثر من تفكيره فى أمور نفسه ، كتب الى عامله على دمشق
فى التقدم الى عماله فى حسن السيرة وتخفيف المثونة وكف الأذى .
وكان يعدل الخراج اذا شكاه منه أهله . وأصاب أهل مكة سيل
جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب الى الحرمين الى المأمون يذكر
له الحال ، فوجه اليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب الى الوالى
(أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله الى أمير المؤمنين ،
فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف
اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ، ان أذن الله فى تثبيت عزمه على
صحة نيته) . وكان له فى كل بلد حوادث من الاحسان قلما يتسامى
اليها أحد من الخلفاء ، وكانت نفقته كل يوم ستة آلاف دينار يصرف
أكثرها على الرعية ولا يناله منها الا جزء طفيف .

وقد اشتهر المأمون بكرمه الواسع الفياض ، وكان سماحة يده
وسماحة نفسه تنبعان من مصدر واحد ، وكان يقول : « سادة الناس
فى الدنيا الأسخياء » . وكل من اتصل به لهج بكرمه ، حتى
قالوا عنه انه أجود من السحاب الحافل والرياح العاصف . ولا أدل
على ذلك مما يروى عنه حين كان بالشام وقد ضاق به الحال لتقص
الأموال فى يده ، فما لبث حتى جاءه مال كثير ، فأبى أن يغادر مكانه
حتى فرق هذا المال كله . وروى أحد عمال المأمون أنه قدم عليه ومعه
سبعة آلاف ألف درهم فعرضها على المأمون وقال : هذا المال فضل
معى عن النفقة ، فقال له المأمون : خذه فهو لك ، قال : لا والله يا أمير

المؤمنين لا اقبله ، فقال : خذ منه خمسة آلاف الف ، فامتنع عن ذلك ، فأمره أن يأخذ أربعة آلاف ألف ، وقال : لا أشفعك في امتناعك عن ذلك . فأخذها الرجل وفرق المال على ولد المأمون وأمهات أولاده وحشمه ، فارتجع المأمون المال وقال : انما دفعناه اليك لتنتفع به ليس لتنتفعنا به .

ومن أجل الرعية وفي سبيل الشعب كان المأمون حريصا على قراءة كل الشكاوى والمظالم التى تصل اليه ، يحققها بنفسه ويشير في كل منها بالرأى الذى ينصف المظلوم من الظالم . ونراه ينصح يحيى بن خالد ويقول : يا يحيى اغتتم قضاء حوائج الناس فان الفلك أدور والدهر أجور من أن يترك لأحد حالا أو يبقى لأحد نعمة . وكان المأمون يعمل بهذه الحكمة طوال حياته ، فكان يجلس للمظالم كل يوم أحد من الصباح حتى الظهر ، وذلك منذ قدم الى بغداد . ويذكر ابن طيفور - ولعله أصدق - أنه كان يجلس للمظالم مرتين فى كل جمعة لا يجتمع منه أحد . وهو يصف لنا مجلس المأمون البسيط المتواضع فيقول انه كان يقعد فى صدر نهاره على لبود فى الشتاء ، وعلى حصر فى الصيف ليس معها شيء من سائر الفرش . ونحن لا نستغرب هذا من المأمون الذى كثيرا ما كان يقول: ما أقبح اللجاجة بالسلطان . وكان لا يأذن فى تقبيل يده ويقول لرجل أراد ذلك : قبله اليد من المسلم ذلة ومن الذمى خديعة ولا حاجة بك أن تذل ، ولابنا أن نخدع . والذى يقول أيضا : غلبة الحجة أحب الى من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها ، وغلبة الحجة لايزيلها شيء . وحين كان يجلس المأمون للمظالم تقدمت اليه امرأة تشكو ابنه العباس ، فطلب الى وزيره أحمد بن أبى خالد أن يأخذ بيد العباس ويجلسه مع المرأة مجلس الخصوم ، ثم جعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله انك بين يدي أمير المؤمنين ، وانك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد فان الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم قضى لها بحقتها وأمر لها بنفقة .

ولم يكن المأمون ينصف المسلمين فحسب ، بل كان يحس مسئوليته تجاه الناس جميعا ، أيا كان اعتقادهم . ومما يدل على ذلك ما روى عنه حين قعد للمظالم يوما فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا فنظر في مظالمهم ، وأمر فقضى حوائجهم ، وكان فيهم نصراني من أهل تشكر ، كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له في طريقه ، فلما بصر به المأمون أثبتته معرفة ، فقال : ابطحوه ، فضربه عشرين درة ، ثم قال مسلم : قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصراني قل له : أعود وأعود وأعود حتى ينظر فى حاجتى ، فأبلغه سلم ما قال ، فقال المأمون : هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لسلم : اقض حاجة هذا كائنا ما كانت الساعة .

وفعل المأمون مثل ذلك مع رجل فارسي صاح به فى الطريق قائلا ان أحمد بن هشام - وهو من بطانة المأمون ظلمنى واعتدى على ، فعنف المأمون أحمد بن هشام وأمره بانصاف الرجل واعطائه ما أنفق فى طريقه الى المأمون ، وقال له : « والله لو ظلمت العباس ابنى كنت أقل نكيرا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدنى فى كل وقت » .

ومن توقيعات المأمون التى توضح نواحي عظمته فى اقرار الحق والعدل فوق كل اعتبار قوله : « من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه » . وقوله : « لا أدنيك ولك بابى خصم » . وقوله : « يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » ، وقوله : « ليس بين الباطل والحق قرابة » . وقوله : « لا تغتر بموضعك من امامك فأنك وأخس عبيده فى الحق سيان » ومن رفق المأمون برعيته أن أصحاب الأخبار وجدوا فى طرقات بغداد رقاعا فيها شتم للسلطان وكلام قبيح ، فكتب رئيسهم ابراهيم بن السندی يقول للمأمون : « انا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعا فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظة الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره » ، فكتب المأمون يقول : « هذا أمر ان أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر أصحاب

أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولا عين » .

ومما ينم عن هذا الفرق بالرعية والتجاوز عن الأخطاء التي تصدر عن العامة بسبب عدم الاهتمام الى وجه الحقيقة ، ماروى عن رجل من الزهاد مر فى زورق ، فلما نظر الى بناء المأمون وأبوابه صاح : واعمره ! فسمعه المأمون فدعا به ، فقال : ما قلت ؟ قال : رأيت بناء الأكاسرة ، فقلت ما سمعت . قال المأمون : رأيت لو تحولت من هذه المدينة الى ايوان كسرى بالمدائن ، هل كان لك أن تعيب نزولى هناك ؟ قال : لا ، قال : فأراك انما عبت اسرافى فى النفقة ؟ قال : نعم ، قال : فلو وهبت هذا البناء لرجل ، أكنت تعيب ذلك ؟ قال : لا ، قال : فلو بنى هذا الرجل بما كنت أهب له بناء ، أكنت تصيح به كما صحت بى ؟ قال : لا ، قال : فأراك انما قصدتني لخاصة فى نفسى ، لا لعله هى فى غيرى ، ثم قال له : هذا البناء ضرب من مكاييدنا نبنيه وننتخذ الجيوش ، ونعد السلاح والكراع ، وما بنا الى أكثره حاجة ، فلا تعودن الى فتمسك عقوبتى ، فان الحفيظة ربما صرفت ذا الرأى الى هداه .

وهكذا ناقش المأمون هذا المنتقد له مناقشة عقلية سليمة ، وكشف له عن خطأ ما ذهب اليه وأبان وجه الحاجة فى اتخاذ قصور للخلفاء والحكام . وكان المأمون يعنى ما يقول ، فهو يريد أن يظهر دائما لأعدائه بمظهر البذخ والقوة ، أما فى نفسه فكان متواضعا زاهدا . وقد روى ابن أبى دواد أن ملك الروم أهدى الى المأمون هدية فيها مائتا رطل مسك ، ومائتا جلد سمور ، فقال : أضعفوها له ليعلم عز الاسلام .

واذا كان المأمون لا يقدم على اعتداء ، أو يسبق الى ظلم ، بناء على الأخبار التى كانت ترد اليه ، فقد كان يسعى فى اصلاح الولاة والعمال ، ورفع الظلم عن المظلومين ، واصلاح حال الناس اذا جاءه من الأخبار ما يستدعى ذلك ، وقد رفع اليه بعد قدومه الى بغداد بقليل أن التجار فى شهر رمضان يعتدون على ضعفاء الناس فى

الكيل ، فأمر بقفيز سعته ثمانية مكاكيك ، وجعل فى وسطه عمودا
وسمى الملجم ، وأمر التجار أن يغيروا مكاكيكهم عليه ، ففعلوا ذلك
ورضى الناس .

وما أصدق قول المسعودى فيه : « انه كريم المقدرة ، ميمون
النقبة ، حسن التدبير ، جليل الصنائع ، لاتخدعه الأمانى ،
ولا تجوز عليه الخدائع ، علمه بما بعد عنه من ملكه كعلمه
بما حضره » .

ولاشك أن اهتمام المأمون بالأحوال الداخلية التى تمس شعبة
بصورة مباشرة يدل على حسن سيرته ومقدار ما كان يبذل من
نفسه فى خدمة عامة الشعب ، لايرجو بذلك سلطانا ولا جاها ،
وانما يتقرب الى الله به . وكان هذا الاهتمام بالأمور الداخلية جزءا
يسيرا من السلطات والمسئوليات الجسيمة التى كان على المأمون
أن يؤديها . كانت الفتن والثورات لا تنقطع . كما بينا فى حديثنا
عن الأحوال السياسية فى عهده - وكان مضطرا الى خوض حروب
كثيرة فى الداخل والخارج . ولم يكن خوضه هذه الحروب بدافع
الرغبة فى اكتساب المجد والفخار ، أو توسيع حدود سلطانه
ونفوذه ، فقد كان المأمون بعيدا عن ذلك كله ، وكان يتمنى أن يوجه
أموال الدولة كلها لخدمة الشعب ، لا أن ينفقها على الحروب ويبددها
فى ساحات المعارك . ومن الحكم الدالة على اتجاهه هذا قوله :
« آخر الحرب ما استطعت ، فان لم تجد منها بدا فاجعلها فى آخر
النهار » . ويبدو أنها من الحكم الفارسية المنقولة التى كان المأمون
يحفظ منها ما يوافق آراءه ويصادف هوى فى نفسه . وقد نفذ
المأمون هذه الحكمة تنفيذا دقيقا ، فلم يكن يخوض غمار أى حرب
مضطرا الا بعد أن يبذل ما فى وسعه لتجنبها ، وأبلغ دليل على ذلك
مفاوضته الدائمة لنصر بن شيبث لتجنب القتال ، فلما استكبر نصر
حاربه المأمون وانتصر عليه . كذلك نرى المأمون لا يندفع فى قتال
الروم الا فى أخريات أيامه بسبب مساعدة الروم المستمرة لبابك
الخرمى الذى كان المأمون يرى فى تجرده لقتاله تقربا الى الله واعازا

لدينه لفداحة مايدعو اليه بابك من المروق عن الدين والاستهتار بكل القيم الانسانية والخلقية .

وجملة ما يقال فى شخصية المأمون الحاكم أنها تتميز بالانسانية والتعقل فى كل تصرفاته ، وتبرأ من روح الانتقام والحقد والشهوة الى سفك الدماء ، فكما سلم عهد المأمون من استصفاء أموال الناس ونكبة الوزراء والوجهاء ، سلم كذلك من مشهد السيف والنطع الذى لم يكن يفارق كثيرا من الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، الا فى القليل النادر . ويقول « ول ديورانت » ان المأمون لم ينبج من الصفتين اللتين شانتا أخلاق هارون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضبا مثله ، ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع . وقد لا يبرأ المأمون من تهمة الغضب ، بل لا نكاد نبرىء منها أى انسان ، أما القسوة فهى شىء آخر لا نطن أن من الحكمة اتهم المأمون بها ، أو مقارنته بأبيه الرشيد فى هذا الصدد ، وان كان الأستاذ أحمد فريد رفاعى يميل الى الاعتراف بأن المأمون « كان يتصرف فى بعض الحوادث تصرف الجبابة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ماسودوا به صحائف تاريخهم » . ويضرب على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون (وحشية غريبة) ويقصد بها قتل المأمون الشاعر الأعمى الذى مدح أبا دلف وغالى فى مدحه واطرائه ، بينما كان أبودلف من قواد الأمن الذين أبوا أن يدخلوا فى طاعة المأمون ، ثم لم يلبث أن عفا عنه المأمون وقربه انيه . الا أن حادثة كهذه لا يمكن أن تكون دليلا على قسوة المأمون لأنها حادثة مفردة لا تساوى شيئا الى جانب حوادث العفو الكثيرة التى كان فيها المأمون أكثر من نبيل .

أما موقف المأمون من على بن هشام الذى قتله شر قتلة ، وكان من بطانته المقربين منذ كان فى مرو ففيه دلالة على عظمة المأمون لا على قسوته ، عظمتة كحاكم يقدر مسئوليته ويحرص على رعيته ويجعل مصلحتها فوق كل عاطفة أو مصلحة . وقد روى لنا الطبرى فى حوادث سنة سبع عشرة ومائتين خبر قتل على بن هشام.

وهو يقول ان المأمون قتله بسبب سوء سيرته في أهل عمله الذي كان المأمون ولاءه - وكان ولاءه كور الجبال - وقتله الرجال وأخذته الأموال . وقد أمر المأمون أن يكتب بيان يعلق على رأسه ليقرأه الناس جاء فيه : « أما بعد فان أمير المؤمنين كان دعا على بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام المخلوع الى معاونته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الاجابة ، وعاون فأحسن المعاونة . فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه وهو يظن به تقوى الله وطاعته والانتهاه الى أمر أمير المؤمنين في عمل ان أسند اليه في حسن السيرة وعفاف الطعمة . وبداه أمير المؤمنين بالافضال عليه ، فولاه الأعمال السنينة ووصله بالصلوات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها ، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمده اليه الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة ، فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته فأقاله اياها ، وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة أعداء الله الخرمية على أن لا يعود لما كان منه ، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدراهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة ، فوجد أمير المؤمنين عجيف بن عنيسة مباشرا لأمره ، وداعيا الى تلافى ما كان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ، ففدى الله عجيفا بنيته الصادقة في طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام ، رأى أن لا يؤاخذ من خلفه بذنبه ، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم مثل الذي كان جاريا لهم في حياته » وهذا البيان الذي كتبه المأمون يعد بمثابة حينيات حكم الاعدام الذي نفذه في علي بن هشام ، وكان المأمون صريحا وواضحا في سرد وقائع الاتهام وذكر حسنات الرجل ومساوئه انتى طغت عليه ، وهو يكشف عن أخلاق رفيعة من حاكم يقدر ماضى رجل فيمنحه الفرصة بعد الفرصة ليصلح أخطاه دون جدوى ، وكان أخطر مافى الموضوع . وقد أشار اليه المأمون من طرف خفى - هو أن علي بن هشام أراد خلع طاعة المأمون ،

وحاول اللحاق ببابك الخرمي والانضمام اليه ، ولهذا وثب بعجيف
ابن عنبسة كما قال المأمون . وعلى هذا استحق على بن هشام حكم
الاعدام بسبب خيائنه العظمى للدين والدولة على السواء ، ويرى
المأمون - ومعه الحق كله - أنه لم ينفذ في علي بن هشام الا حكم
الله ، بينما أبى - نبلا منه وكرما - أن يأخذ أبناء الرجل بجريرته ،
فأجرى عليهم الأرزاق كما كانت جارية في حياة أبيهم .

وأما الشخص الثالث الذي ضاق عنه عفو المأمون وأمر بقتله
فهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام المعروف
بابن عائشة وهو من كبار العباسيين . وقد تزعم حركة خلع المأمون
من الخلافة والمبايعة لعمه ابراهيم بن المهدي . فلما ظفر به المأمون
سنة عشر ومائتين ، أمر أن يقام ثلاثة أيام في الشمس ثم ضربه
بالسياط وحبسه في المطبق . واعترف بعد القبض عليه بأسماء
الذين اشتركوا في مؤامرة خلع المأمون ، ولكن المأمون رفض أن
يتعرض لأحد ممن ذكرهم اذ لم يأمن أن يكون قد قذف قوما أبرياء .
وكان من الممكن أن ينتهي عقاب المأمون لابن عائشة ومن معه عند
هذا الحد ، ولكن تطور الأمر بعد قيامهم بحركة تمرد وعصيان في
سجنهم ، يقول في ذلك الطبري (رفع أهل المطبق أنهم يريدون
أن يشغبوا وينقبوا السجن ، وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدوا باب
السجن من داخل ، فلم يدعوا أحدا يدخل عليهم ، فلما كان الليل
وسمعوا شغبهم بلغ المأمون خبرهم ، فركب اليهم من ساعته بنفسه ،
فدعا بهؤلاء الأربعة (١) ف ضرب أعناقهم صبرا ، وأسمعه ابن عائشة
شتما قبيحا) فهناك اذن أكثر من سبب يدعو الى قتل ابن عائشة
ومن معه من رؤوس الفتنة ، فبالإضافة الى عدائه السابق للمأمون
وخلعه اياه يريد أن يقوم بحركة تمرد وعصيان في السجن ، فكأنه
لم يعلن توبته ، ولا يزال على عدائه للخليفة ، بدليل شتمه المأمون
شتما قبيحا كما يقول الطبري .

(١) هم ابن عائشة ومحمد بن ابراهيم الافريقى ومالك بن شاهى وفرج

وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لا نكاد نعر في أخبار المأمون أنه قتل غيرهم ، الا من كان ذا جريمة تدعو الى القصاص . وحتى هؤلاء الثلاثة - كما رأينا - لا يخلون من جرائم في حق الدولة أو الدين أو المأمون نفسه .

أما عن عفو المأمون وتسامحه فنستطيع أن نتحدث عنه الكثير مما يدل على أصالة العفو في نفسه ، ورحابة صدره وغفرانه لمن يؤذيه أو يناله بالسوء . وغاية ما يقال في هذا أن المأمون كان يتهاون في حق نفسه ، ولكنه لم يتهاون في حق الدين أو الدولة ، كما يتضح لنا في تشدده مع ابن عائشة وعلي بن هشام . ويتحدث المأمون عن مذهبه في العفو فيقول : أنا والله ألد العفو حتى أخاف أن لا أؤجر عليه ، ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقربوا الى بالذنوب . ويقول أيضا : لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيي في العفو ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور الى قلوبهم .

وقد يستبد الغضب بالمأمون فيخرج عن لينه ورفقه ، ولكنه لا يلبث أن يثوب الى نفسه . ومما يروى في هذا الصدد أن رجلا ارتكب جناية وقف بين يدي المأمون ، فثار غضب المأمون عليه وقال: والله لأقتلنك ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، تأن فان الرفق نصف العفو ، قال المأمون : وكيف وقد حلفت لأقتلنك ، فقال الرجل : لأن تلقى الله حائشا خيرا من أن تلقاه قاتلا ، فحلى سبيله . ولو أن العفو لم يكن صفة انسانية نبيلة في نفس المأمون لأخذ كل رؤوس الفتنة التي انتهت بخلعه وتعيين عمه ابراهيم بن المهدي خليفة بمنتهى القسوة والعنف ، ولكنه عفا عنهم جميعا الا ابن عائشة وثلاثة معه للسبب الذي ذكرناه . لقد عفا عن عيسى بن خالد ، وهو يصف لنا جرمه فيقول : طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي ، وذهب بخراجي وفيثي ، وأخرب على ديارى ، وأقعد ابراهيم خليفة دوني ودعاه باسمي . بل عفا عن ابراهيم بن المهدي نفسه مما جعل لسانه ينطلق بمدحه والاشادة بعفوه .

وعفا عن الفضل بن الربيع الذي كان سبب مأساة الحرب بينه

وبين أخيه الأمين ، فحين دخل المأمون بغداد لجأ الفضل الى طاهر ابن الحسين فأدخله على المأمون جاسرا ، لاسيف عليه ولا طيلسان ولا قلنسوة ، فلما توسط الدار ، وثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين ثم التفت اليه قبل أن يسلم عليه بالخلافة فقال : أتندرى لم صليت يا فضل ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، قال : شكر الله اذ رزقنى العفو عنك . وحتى ابن رحيم المدنى الذى كان يصعد المنبر ولا يدع من قول القبيح شيئا الا شتم به المأمون عفا عنه ولم يمسه بسوء .

وتقترن بصفة العفو فى شخص المأمون الانسان صفة الحلم ، ومما يروى فى ذلك أن بشر بن الوليد قال للمأمون يوما : ان بشرا المريس يشتمك ويعرض بك ويزرى عليك ، فقال : فما أصنع به ؟ ثم دس المأمون رجلا فحضر مجلسه ، وتسمع ما يقول ، فاتاه الرجل يوما فقال : سمعته يقول حين أراد القيام وفرغ من الكلام بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم العن الظلمة وأبناء الظلمة من آل مروان ، ومن سخطت عليه ممن آثر هواه على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، اللهم وصاحب البرذون الأشهب فاعنه . فقال المأمون : أنا صاحب البرذون الأشهب ، وسكت عليها . فلما دخل عليه بشر ، قال له : يا أبا عبد الرحمن متى عهدك بلعن صاحب البرذون الأشهب ؟ فطأطأ بشر رأسه ، ثم لم يعد بعد ذلك الى ذكره والتعرض له .

وكانت أم جعفر عند المأمون فأمر خدمه بشيئين لم يعمل ، فاستنكرت ذلك فقال لها المأمون : لا معنى لعقوبة بعد قدرة ، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهذه الحكمة الصائبة لم يخرج عليها المأمون قط فيما وصلنا من أخباره ، فكان مع خدمه ليلى رفيقا الى حد اغرائهم بالتهجم عليه . ويروى ابن طيفور فى ذلك رواية أعتقد بصحتها برغم المبالغة فيها لأنها تمثل المبالغة فى حلم المأمون نفسه ، قال : كان للمأمون خادم يتولى وضوءه ، فكان يسرق أطسامه فبلغ ذلك المأمون فعاتبه ، ثم

قال له يوما وهو يوضيه : ويحك لم تسرق هذه الطست ، لو كنت اذ سرقتها أتيتني بها اشتريتها منك ، قال : فاشتر هذا الذي بين يديك ، قال : بكم ؟ قال : بدينارين قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن في الأمان ؟ قال : نعم .

وحدث جعفر ابن أخت العباس وقد ذكر حلم المأمون فقال : لحلمه والله أرجح من حلوم ألف كلهم حلیم ، ليس فيهم ملك ولا خليفة ، ثم قال : دخلت عليه أمس ، وإذا يده معلقة من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح : يا غلام ! وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه ، فخرجت اليهم وأنا أفور غضبا ، فإذا بعضهم يلعب بالكعب ، وبعض يلعب بالشطرنج ، وبعض يهارش بين الديوك . فقلت : يا بني الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد : حتى أقيس هذا الكعب وأجىء ، وقال الآخر : قد بقيت لي على هذا ضربة ، وقال آخر : اذهب فاني أتبعك ، فما علمت ماكنت أخطب به من الغيظ والحنق عليهم ، قال : فإذا المأمون قد صوت بى وأنا أقذف أمهاتهم ، فاتيته وهو يضحك ، فقال : ارفق بهم فانهم بشر مثلك ، قلت : والعق أنت يدك ، فضحك وقال : هذا معاشرتك خدمك ؟ قلت : والله لو فعل بى ابنى هذا دون خدمى لقتلته ، قال : هذه أخلاق السوق ، وأخلاقنا أخلاق الملوك ، قلت : لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء أيضا .

ومثل هذه الروايات التي تصور حلم المأمون ورقفه بالضعفاء وخاصة خدمه نجد الكثير في المصادر المختلفة . ومن بين هذه الروايات ما ذكره عبد الله بن طاهر قال : كنت عند المأمون فنادى بالخادم : يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : يا غلام ، فدخل غلام تركى وهو يقول : ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح : يا غلام يا غلام ، الى كم يا غلام ؟ فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر الى وقال : يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ، ساءت

أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ، وأنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا !
وهذه الجرأة من خدم المأمون عليه لا يقابلها عسف ولا جور ،
وانما يذهب المأمون في ذلك مذهب الحلم الجميل والعفو منهم ،
مؤكدًا قوله : لا معنى لعقوبة بعد قدرة . وكثيرا ما كان المأمون يقوم بنفسه لأداء الخدمة التي يريد ، فقد روى أبو الصلت عبد السلام ابن صالح قال : بت عند المأمون ليلة ، فنام القيم الذي كان يصلح السراج ، فقام المأمون وأصلحه ، وسمعتة يقول : ربما أكون في المتوضأ فيشتمني الخدام ويفترون على ولا يدرون أنى أسمع فأعفو عنهم .

ولا أعرف أحدا من الأعظماء وصل حلمه الى هذا المدى ، حتى ان واحدا من بطانته كان يقول ان المأمون يحلم حتى يغيظه حلمه .
وروى في ذلك أنه كان على شاطئ دجلة فمر ملاح وهو يقول : أتظنون أن هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه ؟ فما زاد المأمون على أن تبسم وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل ؟ وشبيه بهذا أيضا رواية المأمون مع أبي كامل طبائحه ، فقد أمره المأمون أن يعد صنفا بعينه لغداء اليوم التالي ، ودعا ضيوفا لمشاركته طعامه ، فلما جاء الضيوف ودعا المأمون بما طلبه من الطعام قال الطباخ انه قد نسي ، فلم يزد على قوله : أحب أن لا تنسى .

وهذا الحلم الواسع كما يقتزن بروح السماحة والعفو في شخصية المأمون يقتزن بفضيلة التواضع أيضا ، فهو يتواضع بكل من يعرفه تواضعا جميلا ، ينسى سلطانه وخلافته ، ويذكر المرء بأنه إنسان نبيل فحسب . يتصف بالبساطة والسمو والحساسية المفرطة التي لا تحب ايداء شعور انسان ما . بات عنده قاضيه يحيى بن أكثم فأخذ سعال ، فرآه يحيى وهو يسد فمه بكم قميصه حتى لا يتنبه ، وكان يحيى يماشيهِ يوما في بستان فكان في الجانب الذي يستريح من الشمس ، فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع ، أراد يحيى أن يدور الى الجانب الذي يستريح من الشمس فقال : لا تفعل ولكن

كن بحالك حتى أستررك كما سترتني . ونام يحيى بن خالد عند المأمون فمطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ويحيى نائم حتى لا يوقظه ، وقام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء فأخذ منه كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى ينام عليه يحيى فخطا خطوات خائف لئلا ينبهه حتى صار الى فراشه . بل نرى المأمون يقوم لاحضار ماء ليحيى بن أكرم . وكان ضيفا عنده ، فلما استهول ذلك يحيى قال له المأمون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد القوم خادهم .

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على المأمون - وكان من أسخف الناس وأجهلهم - فقال للمأمون : كان أبوك يابا صديقا ، وانت يابا لا تعرف حقنا ، ولا ترفع بنا رأسا ، ونحن يابا جيرانك . . وهكذا والمأمون يطرق مايرد عليه شيئا ولا يزيده على التبسم . وليس معنى ذلك كله أن المأمون كان ضعيف الشخصية مع خدمه أو خاصته ، بل كان قويا قادرا يستطيع أن يرد الرجل الى مكانه فى أى وقت يشاء . دخل عليه مخارق المغنى وكان ينادم المأمون على الشراب ، فرأى المأمون يأكل ، فدعاه الى الطعام ، فأقبل مخارق على مشاركة المأمون فى طعامه ، فحجبه عنه شهرا كاملا ، ثم أذن له فدخل عليه وهو يتغدى أيضا ، فدعاه الى الطعام فأبى مخارق وقال : لا والله لا أعود لمثلها أبدا . فضحك المأمون ثم قال له : ويحك أظننت بى بخلا على الطعام ؟ لا والله ولكنى أردت تأديبك لمن بعدى . لأن الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها ، وأخاف أن تتعود هذا من غيرى فلا يحتملك عليه ، فتعال الآن فكل فى أمان .

وفضيلة التواضع التى هى مركوزة فى نفس المأمون تجعله يأبى أن يتصف بخصلة ليست له ، ولو كانت من باب الاعظام . أو المجاملة ، بات عنده يحيى بن أكرم ليلة فانتبه المأمون فقال : يا يحيى انظر أبش عند رجلى ؟ فنظر يحيى فلم ير شيئا ، فطلب المأمون شمعة فأتى بها الفراءشون فقال : انظروا ، فنظروا فإذا تحت فراشه حية بطوله ، فقتلوها ، فقال يحيى : قد انضاف الى كمال

أمير المؤمنين علم الغيب • فقال المأمون : معاذ الله ، ولكن هتف بى هاتف الساعة وأنا نائم فقال :

يا راقد الليل انتبه ان الخطوب لها سرى
ثقة الفتى بزمانه ثقة محللة العرى
فانتبهت فعلمت أن قد حدث أمر اما قريب واما بعيد ، فتأملت
ما قرب فكان ما رأيت •

وبسبب تواضع المأمون أيضا لانراه يلج فى خطأ يعلم أنه خطأ ، أو يضيق صدره بمن يردده فى سئى بل يتقبله ويفهم وجه الصواب فيه • روى مرة حديثا عن رسول الله يقول فيه : « اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » • فنطق لفظ سداد بالفتح ، وكان فى مجلسه النضر بن شميل فأعاد الحديث ناطقا لفظ سداد بالكسر ، وكان المأمون متكنا فاستوى جالسا وقال : السداد لحن يانضر ؟ فقال : نعم ، قال المأمون : ما الفرق بينهما ! قال النضر : انسداد بالفتح القصد فى السبيل والساد بالكسر كل ما سددت به سبيئا • وطلب المأمون شاهدا من أقوال العرب فتمثل النضر بيت من الشعر ، فأطرق المأمون مليا ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، يعنى نفسه يلومها على خطئه •

ومع ما يبدو من لين جانب المأمون الا أننا نراه قويا فى مجاهدة نفسه ، لا يضعف أمام لذة ، ولا يتمالك على الشهوات • وقد رأينا ذلك فى شخصيته منذ كان طفلا وشابا ، فهو لا تستهويه مغريات عصره على كثرتها ، ومع قدرته على التمتع بأعظم ما فيها • بل نراه يحاسب نفسه على أبسط الأمور ، فقد أعجب اعجابا شديدا بفص ياقوت ولكنه لم يسمح لنفسه بالخضوع نهواه ، فرد الفص لصاحبه ، وقال : والله لأضعن من قدر هذه الحجارة التى لا معنى لها • وكان اذا غنى بالصوت يشتهي استعاده ولم يسمح غيره ، واذا انتهى من الطعام صنفا أكله ولم يأكل غيره • ولاشك أن هذه النزعة العملية فى شخصية المأمون مردها اقباله على الفلسفة والعلوم العقلية التى جعلته يقيس الأشياء بقيمتها الحقيقية • وبهذا نراه أيضا لا ينفعل

بالأقوال قط ، كما في حديثه للواعظ الذى أصغى اليه منصتا ، فلما فرغ قال له : قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا بها وبما علمناه . غير أنا أحوج الى المعاونة بالفعال منا الى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون . وليس معنى ذلك أن المأمون لم يأخذ قط نصيبه من الدنيا أو يسمح لنفسه بقدر من التمتع لا يرى فيه خروجاً على جادة الدين أو المبادئ والمثل التى يأخذ بها نفسه . كان يحب أن يتفكه مع خاصته يعابشهم ويتقبل عيبتهم ، كما رأينا فى سخريته من ضخامة جثة عمه ابراهيم بن المهدي وسواد لونه ، وكما يروى ابن طيفور عن شخص اسمه أبو عيسى كان مشهوراً بالبعث . وكان المأمون يتقبل منه معابثاته بصدور ربح .

وكان كما ذكرنا من قبل — يحب أن يروح عن نفسه من غناء مسئولياته ومن جهد مجالسه العلمية بلعب الشطرنج ويقول عنه انه يشمذذ الذهن .

أما ملهيات عصره من شراب وغناء فقد كان المأمون يشرب النبيذ على مذهب العراقيين طبقاً لما ارتآه أبو حنيفة الذى لم يكن يعد النبيذ خمراً وكان يجوز شربه ويقول صاحب كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » ان المأمون كان فى أول أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة ، ثم أدمن الشراب عند خروجه الى الشام فى سنة خمس عشرة ومائتين الى أن توفى . الا أننا نشك فى هذه الرواية ، ولا نرى من واقع حياة المأمون ودراستنا لشخصيته ما يجعله يصل الى مرحلة الادمان . ولو كان شرابه النبيذ الذى حلله بعض الفقهاء .

وأما الغناء فكان المأمون انشاعر الرقيق الاحساس من عشاقه بطبيعة الحال ، ويذكر الجاحظ أن المأمون ظل بعد عودته الى بغداد نحو عامين لم يسمع حرفاً من الغناء اذ كان مشغولاً فيما يبدو بتدبير أمور الدولة ومواجهة الفتن والاضطرابات التى كادت تعصف بسلطانه . ثم سمع الغناء من وراء حجاب متشبهاً بالرشيد ، وظل كذلك سبع سنوات ، ثم ظهر للندماء والمغنين .

وقد شهد عصر المأمون أعظم المغنين والموسيقيين : كان فيه علويه

ومخارق واسحق الموصلى وابراهيم بن المهدي وعمرو بن بانه وبذل
الجارية وعريب ومن اليهم ، وكان المأمون يستجيد الأصوات والألحان
وينفذ اليها بعمق ويطرب لها وهو يشرب النبيذ غالبا ، دون أن
يخرج عن طوره أو يخلع عذاره .

وأما عن علاقة المأمون بالنساء ، فلم نر فى أخباره مايدل على
أى نوع من الغرابة أو الشذوذ فى هذه العلاقة ، ويبدو أنه لم يتزوج
من الحرائر غير أم عيسى ابنة عمه موسى الهادى وقد أنجب منها
ولدين كما سبق أن ذكرنا ، أما بقية أولاده الذين يبلغون أربعة عشر
ذكرا - غير ولديه من أم عيسى - وبناته اللاتي لا نعرف عددهن فقد
أنجبهم من أمهات أولاد .

وكان المأمون فى اختياره الجوارى حريصا على معرفة عقل
الجارية قبل رؤية جمالها ، حكى أحد النخاسين قال : عرضت على
المأمون جارية شاعرة فصيحة متأدبة شطرنجية (أى تحسن لعبة
الشطرنج) فساومته فى ثمنها . بألفى دينار ، فقال المأمون ان هى
أجازت بيتا أقوله ببيت من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك .
فكانه يقدم على الجمال معرفة الجارية بالأدب وحسن فهمها له
وتجاوبها معه .

ولعل قصة الحب الوحيدة أو مايشبهه أن تكون قصة حب فى
حياة المأمون ما يروونه عن علاقته بعريب الجارية ، فابن المعتز يروى
أن المأمون كان يعشقها وهى عند مولاها ، وكانت من أجمل النساء
وجها كما يقول ابن طيفور ، وصوتها من أعذب الأصوات فى عصرها
على كثرة من فيه من المغنين - ويبدو أن المأمون استطاع أن يشتريها،
ولكنه لم يستطع أن يشتري قلبها اذ كان معلقا بحب آخر هو محمد
(أو جعفر) بن حامد الذى كانت تواصله خفية حتى انها كانت تتدلى
فى زبيل الى جانب القصر ثم تصعد مرة أخرى ، بينما وضعت على
فراشها مثال رخام تحت الغطاء بحيث يحسب من رآه من بعيد أنها
نائمة . ويقول السيوطى ان المأمون اكتشف هذه العلاقة بين جاريتيه
وعشيقها - ويبدو أنه كان واحدا من بطانته - فلم تأخذه الغيرة بحيث

يبتعد غضبه ، بل زوجها في الحال ومهرها عن حبيبها أربعمئة درهم .

ويبدو أن المأمون كان مستقبلا في حياته العائلية ، مهتما بتربية أولاده وتنقيفهم ، وتلقينهم مكارم الأخلاق التي تعجبه ، وقد رأينا من قبل كيف كان يلوم أحدهم على خطئه في النحو ، كما عنف العباس ابنه على ظلمه للمرأة التي شكته . وكان يجزع برقة احساسه وجميل عطفه وأبوته على من يمرض من أولاده حتى ليتوسل بآثار النبي طلبا للبركة والشفاء - كما سبق أن ذكرنا - وحين ماتت ابنة له حزن عليها حزنا شديدا ، وقعد للناس يلتمس عزاءهم يخفف عما بنفسه ، يقول ابن طيفور في ذلك : وأصيب المأمون بابنة له وهو يجد بها وجدا شديدا ، فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد ، وأن يثبت عن كل رجل مقالته ، فدخل اليه فيمن دخل إبراهيم بن المهدي فقال : يا أمير المؤمنين ، كل مصيبة تعدتك شوى إذ كنت المنتقم من الأعداء ، ولك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فانه عزى عن ابنته رقية فقال : موت البنات من المكرمات ، فأمر له المأمون بمائة ألف درهم وأمر أن لا يكتب شيء بعد تعزيتته . وكأن نفسه قد استراحت وهدأت بما سمعه من حديث رسول الله ، فكان جلاء لحزنه .

أما زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل فكان زواجا سياسيا لاشك فيه ، إذ أراد المأمون أن يوثق علاقته بآل سهل ليضمن دوام ولاء الفرس له ، ويعطف قلوبهم نحوه . ويتضح لنا هذا الدافع من عقد المأمون على بوران في سنة ٢٠٢ هـ . بعد مقتل الفضل بن سهل مباشرة - وكانت سنها إذ ذاك لاتزيد على عشر سنين ، وكان المأمون خاف انتفاض الفرس عليه فأراد استمالتهم بهذه الرابطة الجديدة التي يؤكد بها خولتهم السابقة له . وانتظر المأمون حتى عام ٢١٠ هـ ليدخل على بوران وكأنه كان مترددا في إتمام هذا الزواج ، ثم لم يجد بأسا من إتمامه استمرارا لوجود الدافع الذي كان وراءه .

وكان عرس بوران حدثا اجتماعيا تاريخيا لكثرة ما أنفق عليه
 وما أحاط به من مظاهر الفخامة والروعة والتراء . وكأني بالفرس
 قد أرادوا أن يظهروا قوتهم وضخامة ثرائهم ، فلم يجدوا فرصة
 أنسب من هذا الزواج التاريخي لاطهار ما يريدون . وقد روى
 لنا الطبرى صورة لمراسم هذا الزواج فقال : أخذ المأمون معه إبراهيم
 ابن المهدي من بغداد شاخصا الى فم الصلح - حيث معسكر الحسن
 ابن سهل - راكبا زورقا حتى أرسى على باب الحسن .
 وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه على الظهر ، فتلقاه الحسن
 خارج عسكره فى موضع قد اتخذ له على شاطئ دجلة ، بنى له
 فيه جوسق ووافى المأمون وقت العشاء فى شهر رمضان
 فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى
 فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب فاتى بجام
 ذهب فصب فيه ، وشرب ، ومد يده بجام فيه شراب الى الحسن
 فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار
 ابن عبد الله الحسن فقال له الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك
 وأمرك ، فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدي اليك ، فأخذ الجام
 فشربه . فلما كان فى الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن
 ابن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرئاستين ، فلما كان فى
 الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها ،
 فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى
 صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد ذلك الدر كم
 هو ، فقالت ألف حبة ، فأمر بعدها فنقصت عشرا ، فقال : من
 أخذها منكم فليردها ، فقالوا : حسين زجلة ، فأمره بردها ، فقال :
 يا أمير المؤمنين انما نشر لنأخذه ، قال : ردها فاني أخلفها عليك ،
 فردها . وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية كما كان ، فوضع فى
 حجرها وقال : هذه نحلتنك وسمى حوائجك . فأمسكت ، فقالت
 لها جدتها : كلمى سيدك وسليه حوائجك فقد أمرك . فسأله الرضا
 عن إبراهيم بن المهدي فقال : قد فعلت ، وسألته الاذن لأم جعفر

فى الحج فأذن لها • وابتنى بها فى ليلته ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مسنا فى نور ذهب ، فانكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف ••• وذكر أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوما يعد له فى كل يوم لجميع من معه كل ما يحتاج اليه ، وأن الحسن خلع على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم • وأمر المأمون غسان ابن عباد عند منصرفه أن يدفع الى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطع الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال الذى أعطاه له المأمون فى قواده وأصحابه وحشمه وخدمه • ويقال ان الحسن كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها (١) •

وهكذا دخل زواج المأمون ببوران التاريخ اذ يعتبر من الأعراس المعسودة على مدى ائزمن لكثرة ما أنفق فيه من مال يبلغ ملايين الدراهم • ولم يكن المأمون يتوقع من الحسن بن سهل هذا الاسراف الشديد - كما يتبين لنا من حديث له - ولكن الحسن - كما ذكرت - كان يعتبر هذا الزواج تنويجا لعلاقة الفرس بالعرب وايدانا بعودة مجد الفرس ، ولعله كان يتمنى أن يعقب هذا الزواج ولدا تكون له الخلافة فى يوم من الأيام ، أو يحاول الفرس أن يجعلوا له الخلافة ، ولكننا لا نظن أن المأمون قد أنجب من بوران ، أو على الأقل لم ينجب منها ذكرا ، والا أشارت الى ذلك المصادر التاريخية •

ومما تقدم يتبين لنا أن المأمون لم يكن يستسلم كثيرا لعواطفه أو مغريات عصره ، وأن شخص الخليفة فيه والانسان اجتماعا وامتزجا بحيث لم يعد فى المستطاع فصل الشخصيتين بحيث يقال المأمون الحاكم والمأمون الانسان • هنا مأمون واحد ركزت فيه كل

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧١ حوادث سنة ٢١٠ هـ والمسن ميزان قدر رطلين والنور اناء •

الصفات النبيلة التي ذكرناها، فيه التواضع والحلم والسماحة والعفو، فيه الرحمة حتى لأعدائه . فحينما فتح المأمون حصن قرّة بأرض الروم وغنم مافيه اشترى السبى بستة وخمسين ألف دينسار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا وكان طوال حربه فى بلاد الروم يعتق الشيوخ ويحمى العجائز . والى جانب هذه الصفات الانسانية كان شجاعا فى مواجهة الواقع ، صادقا فى وعده لا يتلون ولا يتبدل، ويكفى أنه حافظ على الوعود التي قطعها للناس فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة ، فلم يجد عنها قط . يضاف الى ذلك كله أنه كان شاعرا رقيق الحس ، وكان عالما متفهما فى الدين ، وفيلسوبا متكلما يستند الى الحجة ويقنع بالدليل والمنطق .

ولعل نوع الحياة التى عاشها المأمون بكل مافيه من ثورات وحروب وفتن ، وبكل ما فيها من جد خالص واقبال على العلم ، وافتاء النفس فى سبيل رعاية مصالح الناس أجمعين قد جعلت الشيب يسرع الى رأسه ، فبدا سمته مهيبا بعد أن نضجت رجولته، واستطالت له لحية رقيقة . وربما كان شيبه المبكر نتيجة عامل الوراثة ، اذ اتصف الرشيد بمثل ما اتصف به المأمون فى ذلك . ثم كانت حياته بكل مافيه من أحداث حياة عريضة ولكنها قصيرة ، كان قد خرج لحرب الروم فنزل على عين البدندون فأعجبه برد مائها وصفائوه ، وطيب الموضع وكثرة مافيه من خضرة موفقة ، ورأى فى العين سمكة كأنها سبيكة فضة ، فأعجبه فلم يقدر أحد أن ينزل فى العين لشدة بردها ، فجعل لمن يأتيه بالسمكة جائزة فاصطادها أحد أتباعه وخرج بها ، ولكن ما لبثت السمكة أن اضطربت فى يده وفرت الى الماء فتتنضح صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه ، ومالبت أن أصابته رعدة ، فأوقدت حوله نار ، وسأل عن معنى البدندون فقيل له : ان ترجمتها « مد رجلك » فتطير بالمكان ، وكأنما شعر بدنو أجله فقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وانطفأت حياة المأمون فى يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب

سنة ثمانى عشرة ومائتين • وكأنى به كان يردد لنفسه الأبيات
«التى طالما كان يعجب بها وينشدها فى حياته :

«ومن لا يزل عرضا للمنون يتركه ذات يوم عميدا
«فان هن أخطأنه مرة فيوشك مخطئها أن يعودا
«فبينما يحيد وتخطينه قصدن فأعجلنه أن يحيدا

فهرس المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- ١ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى
- ٢ - الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى
- ٣ - أشعار أولاد الخلفاء لأبى بكر الصولى
- ٤ - أشعار الخليفة الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج.
- ٥ - الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى
- ٦ - الامالى لأبى على القالى
- ٧ - الامامة والسياسة لابن قنينة
- ٨ - التاج فى أخلاق الملوك للحافظ
- ٩ - تاريخ ابن خلدون
- ١٠ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
- ١١ - تاريخ الخلفاء وامراء المؤرخين لجلال الدين السيوطى
- ١٢ - تاريخ الطبرى
- ١٣ - تاريخ اليمقوبى نشر المكتبة المرنضوية فى النجف
- ١٤ - التنبيه والاشراف للمسعودى
- ١٥ - دول الاسلام للحافظ الذهبى
- ١٦ - ديوان ابراهيم الصولى (مجموعة الطوائف الادبية)
- ١٧ - زهر الآداب وثمر الالباب لأبى اسحق الحصرى القيروانى
- ١٨ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى
- ١٩ - طبقات الشعراء لابن المعتز
- ٢٠ - المعقد الفريد لابن عبد ربه
- ٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة

- ٢٢٢ - الفخرى في الاداب السلطانية لمحمد بن على بن طباطبا
- ٢٢٣ - الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي
- ٢٢٤ - الكامل في التاريخ لأبى الحسن بن الاثير الجزري
- ٢٢٥ - كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور
- ٢٢٦ - مروج الذهب للمسعودي
- ٢٢٧ - المعارف لابن قتيبة الدينوري
- ٢٢٨ - مقاتل الطالبين لأبى الفرج الاصفهاني
- ٢٢٩ - الملل والنحل للشهرستاني
- ٣٠ - النبراس في تاريخ خلفاء بنى العباس لابن دحية الكلبي
- ٣١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
- ٣٢ - نهاية الارب للنويري
- ٣٣ - الوزراء والكتاب للجيشياري
- ٣٤ - وفيات الاعيان لابن خلكار
- تكملة : كتب اخرى :**
- ٣٥ - أبو تمام حياته وحياة شعره نجيب محمد البهيتي
- ٣٦ - أبو تمام عمر فروخ
- ٣٧ - اتجاهات الشعر العربي في القرن
- الثاني الهجري محمد مصطفى عداة
- ٣٨ - أحمد بن حنبل والحنلة ولتر باتون
- ٣٩ - أدب المعتزلة عبد الحكيم بلبع
- ٤٠ - أسباب اختلاف الفقهاء على الخفيف
- ٤١ - الاسلام والحضارة العربية محمد كرد على
- ٤٢ - بغداد في عهد الخلافة العباسية لى سترانج
- ٤٣ - بلدان الخلافة الشرقية لى سترانج
- ٤٤ - تاريخ التمدن الاسلامي جورجى زيدان
- ٤٥ - تاريخ الجهمية والمعتزلة جمال الدين القاسمي الدمشقي

- ٤٦ - تاريخ الحضارة الإسلامية كارل بروكلمان
- ٤٧ - تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث نجيب البهيتي
- ٤٨ - تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان
- ٤٩ - تاريخ العرب فيليب متى
- ٥٠ - تاريخ الفلسفة في الإسلام دي يور
- ٥١ - تاريخ الولاة والقضاة في مصر لمحمد بن يوسف الكندي
- ٥٢ - تراث الاسلام
- ٥٣ - الجاحظ حياته وآثاره طه الحاجري
- ٥٤ - حضارة الاسلام فون جرونيوم
- ٥٥ - الحضارة الإسلامية فون كريمر
- ٥٦ - دائرة المعارف الإسلامية
- ٥٧ - دراسات اسلامية مجموعة باحثين
- ٥٨ - الصراع بين الموالي والعرب محمد بديع شريف
- ٥٩ - نضج الاسلام أحمد أمين
- ٦٠ - العصر العباسي الأول عبد العزيز الدوري
- ٦١ - عصر المأمون أحمد فريد رفاع
- ٦٢ - العقيدة والشرعية في الاسلام جولد زهير
- ٦٣ - العلم عند العرب الدو ميللي
- ٦٤ - الفكر العربي ومكانه في التاريخ دبلاس أوليري
- ٦٥ - قصة الحضارة ول ديورانت
- ٦٦ - محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية محمد الخضري
- ٦٧ - مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب دبلاس أوليري
- ٦٨ - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي روزنتال
- ٦٩ - من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام بندلي جندي

فهرس الموضوعات

الصفحة	
٣	مقدمة
	الفصل الأول :
٥	صورة العصر
	الفصل الثاني :
٢٢	ميلاد ونشأة
	الفصل الثالث :
٣٣	فى ظلال الرشيد
	الفصل الرابع :
	فى طوفان السياسة :
٤٧	أولا : فى مرو
٧٧	ثانيا : فى بغداد
	الفصل الخامس :
٩٥	فى تيار الثقافة
	الفصل السادس :
١٢٥	فى سبيل العقيدة
	الفصل السابع :
١٤٤	صورة الحاكم والانسان
١٧٢	فهرس المصادر والمراجع
١٧٥	

دار المصرية للتأليف والترجمة

تقدم

المعرفة عند مفكري المساحين

تأليف
دكتور محمد غلاب

أول مؤلف يضم أبحاث موضوع المعرفة
عند مفكري الإسلام الذي أصبح له مكانة
أعلى في الدراسة الفلسفية في العصر
الحديث . الثمن ٥٠ قرشا

ساعات
من حياتي

تأليف
طاهر الطنجي

يضم الكتاب ثلاثة أبواب :

- أبحاث في الأدب والنقد
- دراسات ودركرات أدبية
- نظريات في الفن والنقد

وهذه الأبواب تجمع بين الفائدة الأدبية
والفنية ومتعة الاطلاع ٩٠

تطلب من

مكتبة دار التأليف والترجمة ٥ ميدان عربي القاهرة ت : ٤٦٣٨٣

الدار المصرية للتأليف والترجمة تقدم في ١٠ نوفمبر ١٩٦٦
العدد الثلاثين من:

مجلة الكتاب العربي

رئيس التحرير:

على أدهم
الدكتور عبد الحليم

تطلب من باع
مكتبة دار ال
٥ ميدان عربي

١

من مواد هذا العدد :

ابن خلدون - حياته وفلسفته الاجتماعية
على أدهم

دراسات في الأدب العربي
فنا روق خورشيد

رمز الطفل : دراسة في أدب المازني
د. نبيله إبراهيم

الفن والأدب
د. أحمد كمال زكي

الثقافة والجمجمة
يوسف الشاروني

الاشتراكية الإفريقية
جمال بدران

أخبار الكتاب العربي في العالم
يقدمها: حسن كامل الصيرفي